الفصل الرابع: المبدعون الاجتماعيون

استقصينا في الفصلين السابقين عالم المبدعين في حقول العلوم والتقانة، والهندسة والرياضيات، وهم شباب أتوا من خلفيات تلك الحقول المعرفية، ولكن كما ذكرت في الفصل الأول، يحتاج عالمنا إلى مبدعين وأصحاب مبادرات في كل منحى من مناحي حياتنا الإنسانية، وسيتقصَّى هذا الفصل التطورَ الذي مرَّ به ثلاثة من الشباب الذين يمكن أن نعدهم (مبدعين اجتماعيين).

في كتابه المهم **كيف تغيِّر العالم: أصحاب المبادرات وقوة الأفكار الجديدة** (How to Change the World: Social Entrepreneurs and the Power of New Ideas)، يصف ديفيد بورنشتاين (David Bornstein) المبدعين الاجتماعيين على أنهم «أناس من ذوي الأفكار الجديدة التي تعالج المشكلات الكبرى، ويبذلون من دون كلال أو ملل كل جهد ممكن من أجل تحقيق رؤاهم؛ إنهم أناسٌ لا يعترفون بكلمة (كلَّا)، ولا يتوقفون إلا بعد أن يصلوا بأفكارهم إلى أبعد نقطة يستطيعون بلوغها»[1]. يلاحظ برونشتاين أن ثورة الاتصالات مهدت السبيل أمام أعداد أكبر من الناس كي يكون فهمهم للعالم، واستيعابهم لما يجري فيه، أوسعَ وأكثر عمقًا، وأما الشباب المسلَّحون بمصادر جديدة للمعلومات، فإنهم يرون بأم أعينهم الدمار البيئي، والفقر والظلم، وغير ذلك، يحيط بهم من كل الجوانب. كما أن نفس تكنولوجيا الاتصالات وفرت للناس أدوات جديدة فعالة من أجل تنظيم الجهود وتنسيقها؛ ففي القرن الحادي والعشرين لم تعد المعرفة والسلطة مقصورة على النخب وحسب.

من خلال معرفتهم في مجالَيّ العلوم والرياضيات، تكون حوافز المبدعين في مجالات العلوم والتقانة والهندسة والرياضيات مختلفة عن تلك التي يتميز بها المبدعون الاجتماعيون، الذين يأتون عادة من بيئات ذات صلة بالفنون الليبرالية. سوف تلاحظون بالتأكيد أن نوعية التعليم الذي تلقاه الشبان الثلاثة الذين سوف تلتقون بهم، إضافة إلى الخلفية التي جاؤوا منها، والطموحات التي يتحلَّون بها، مختلفة تمام الاختلاف عن مثيلاتها عند الشبان الخمسة الذين التقيتم بهم في الفصول السابقة، وكذلك فإن كل واحد من هؤلاء تختلف تجربته في تلك المجالات عن الآخر، ولكن القواسم المشتركة بين هاتين المجموعتين من المبدعين - كما سنرى لاحقًا - أهم بكثير من نقاط الاختلاف التي بينهم؛ فمسائل اللعب والحماسة، وكذلك الهدف، لا تقل أبدًا في أهميتها بالنسبة إلى هؤلاء عن أهميتها بالنسبة إلى أولئك؛ والأمر نفسه ينطبق على عامل أولياء الأمور الذين يقدمون كل الدعم لهم في سعيهم نحو تحقيق أحلامهم، إضافة إلى عامل التأثير عن بعد، الذي يمثله المدرس أو المشرف؛ وما يحدثه كل ذلك من أثر إيجابي فيهم.

لورا وايت

يطمح المبدعون في مجالات العلوم والتقانة والهندسة والرياضيات إلى تغيير العالم، وهو طموحٌ يفهمه عديد من الناس مباشرة، أما المبدعون الاجتماعيون من ناحية أخرى، فيطمحون إلى إحداث تغيير، وهم بطبيعتهم مثاليون جدًّا، كما أنهم في الغالب يتصفون بالتمرد، وهذه مزايا لا يستسيغها كثير من الناس؛ ولذا يحتاج هؤلاء إلى نوع آخر من الدعم الذي ينشدونه من البالغين من حولهم، كما تظهر لنا القصة التي نحن الآن بصددها. سوف تظهر لنا أيضًا الدور المهم الذي تؤديه المنظمات غير الربحية في تعزيز مفهوم الإبداع الاجتماعي، وتنمية روح المبادرة عند الشباب، إضافة إلى القصة الكبرى المتمثلة في الكيفية التي تحاول الجامعة من خلالها إعادة ابتكار ذاتها، من خلال تحويل أزمة ناجمة عن كارثة طبيعية إلى فرصة لإعادة التفكير في رسالتها في القرن الحادي والعشرين.

لورا، الابنة الكبرى لدون وجين وايت، نشأت في ضواحي مدينة أتلانتا بولاية جورجيا، حيث يعمل دون مدرسًا في برنامج الهندسة المدنية في معهد جورجيا التقني. وفي سن العاشرة تقريبًا، دخلت لورا ميدان التنافس في السباحة، وأصبحت سبَّاحةً ماهرة، حيث حلت في المرتبة

السادسة في سباق الفراشة في الولاية عندما بلغت سن الثانية عشرة، ولكن عندما بلغت سن الرابعة عشرة، وفي سنتها الأولى في المدرسة الثانوية الحكومية، وقعت عديد من الأحداث التي غيَّرت جذريًّا المستقبل الذي رسمته لورا لنفسها.

الحدث الأول كان لقاؤها تامي (هذا ليس اسمها الحقيقي) التي أصبحت فيما بعد أفضل صديقاتها. وقد اعتادت لورا الجلوس إلى الطاولة نفسها مع تامي لتناول الغداء، ولكن لورا لاحظت أن تامي لم تكن تحضر معها أي نوع من الطعام أبدًا، وأنها لم تكن تشارك في أيٍّ من أنشطة المدرسة بعد انتهاء الدوام، وقد علمت مع مرور الوقت أن تامي كانت مشرَّدة، وحينها بدأت تشاطرها وجبة الغداء.

قالت لي لورا: «إن لقائي تامي غيَّر من شعوري بنوع المسؤولية التي أحملها تجاه العالم من حولي، وبدأت أشعر أن عليَّ فعل شيء من أجل الآخرين، وليس فقط من أجل نفسي في مجال السباحة. بدأت بالانخراط في مجال المتطوعين بانتظام، وبعد ظهر أحد الأيام كنت أعمل متطوعة في رحلة تخييم للأطفال الفقراء من مدينة أتلانتا، وطُلِبَ إليَّ الإشراف عليهم في رحلة سباحة في البحيرة، وقد أشرفت على الغرق وأنا أحاول مساعدة خمسة أطفال في الوصول إلى شاطئ البحيرة؛ كانت تلك تجربة مخيفة بالنسبة إلي، وانتابني شعور قوي أن هؤلاء الأطفال بحاجة إلى دروس في السباحة».

في ذلك الوقت تقدمت لورا بطلب للانضمام إلى المجلس الاستشاري لخدمات الشباب في برنامج (ساعدوا أتلانتا)، وهو منظمة خدمية محلية، وقد حظيَ طلبها بالقبول؛ «طُلِبَ إلينا تقديم المشورة حول مشروعات تتعلق ببرنامج (ساعِدوا أتلانتا)، ولذلك فقد وجهنا دعوات إلى خطباء تحدثوا عن المشكلات الخدمية والاجتماعية في أتلانتا، وأنجزنا مشروعات خدمية. أما المسألة الكبرى فتمثلت في أن كلًّا منا كان عليه وضع خطة لمشروع خدمي من أجل تقديمها في (اليوم الوطني والعالمي للخدمات الشبابية)، لم يسبق أن طُلِبَ إليَّ فعل أمر مماثل قبل ذلك اليوم، كان الأمر مخيفًا جدًّا بالنسبة إلي، ولكني أنا وأصدقائي في رياضة السباحة نتمتع بمهارات يمكن أن يفيدَ منها الآخرون، وعليه؛ رتبت ليوم يستطيعون فيه إعطاء دروس في السباحة للأطفال المحرومين في أتلانتا».

في الصيف الذي تلا نجاحها في الصف العاشر، حصلت لورا على منحة تدريبية من برنامج (ساعِدوا أتلانتا)، «غادر مديري في هذا المشروع البرنامج بعد أسبوع على انطلاقه؛ ولذا فقد كانت أمامي مسؤولية ضخمة بالنسبة إلى فتاة متدربة في سن السادسة عشرة، وكان عليَّ أن أحملها على كاهلي. كنت أخطط لعديد من المشروعات الخدمية؛ مثل الإشراف على المتطوعين، والعمل لساعات متأخرة حتى في عطل نهاية الأسبوع. وفي الوقت الذي كنت أعمل هناك، أخبرني أحد أعضاء الفريق عن مشروع شبابي آخر، فتقدمت بطلب للالتحاق به، وتلقيت ألف دولار من أجل الاستمرار في إعطاء دروس في السباحة، وقد قُبل طلبي؛ وهكذا بدأ مشروع (السباحة في المياه الهائجة)، وقد أُطلِقَ عليه فيما بعد اسم (اسبح من أجل أن تنجح). يُعدُّ المشروع الشبابي برنامجًا مذهلًا، وقد أطلقت هذا المشروع مجموعة (أشوكا) بعد أن تبين لأعضائها أن لجميعهم تجارب في قيادة مشروعات عندما كانوا في مرحلة الشباب، إضافة إلى أن القائمين على هذه المجموعة رأوا أن تلك الخطوة مهمة جدًّا لخلق عالم تنتشر فيه روح المبادرة الاجتماعية، ويزيد فيه كذلك عدد الأشخاص الذين بإمكانهم صنع التغيير» (أُسِّست مجموعة أشوكا من قبل بيل دريتون سنة 1980م، وهي الآن منظمة عالمية رائدة لترويج روح المبادرة الاجتماعية من خلال الدعم الذي يتلقونه من أعضاء هذه المجموعة والعديد من البرامج الأخرى)[2].

تحدثت جين وايت، والدة لورا، عن الأساليب التي اتبعتها بالتعاون مع زوجها في محاولة منهما لدعم اهتمام ابنتهما الواعد بروح المبادرة الاجتماعية، قالت: «كنا دائمًا نشجع أولادنا على استقصاء الأشياء التي تثير اهتمامهم، وكنا ننصحهم أيضًا بالتوقف عندما لا يعودون يبدون الاهتمام بما كانوا يعملون على تحقيقه. في ذلك الوقت كانت لورا في المرحلة الثانوية، وكان من الواضح تمامًا أن اهتمامها ازداد في الخوض في مشروعات الخدمة الاجتماعية على حساب اهتمامها برياضة السباحة».

وافق دون على ما قالته جين، وأضاف يقول: «أصبحت الخدمة الاجتماعية (رياضة) لورا المفضلة، بعض منا يقتات على المنافسة، لكن المنافسة في مجال السباحة كانت تمثل ضغطًا كبيرًا عليها، ومع ذلك فقد تعلمت لورا الانضباط، والتركيز، والتحكم في وقتها، من خلال رياضة السباحة».

عقبت جين بالقول: «وعندما تعيَّن عليها خوض منافسة للحصول على تمويل لمشروعها حول السباحة، سخَّرت كل قواها من أجل ذلك»، وأضاف دون يقول: «فقط الخمسة عشر شخصًا الذين وصلوا إلى الأدوار النهائية كانوا سيحصلون عل التمويل المطلوب، وكان ذلك يعتمد على عدد الأصوات الشعبية التي تحصل عليها من أجل الفوز بالتمويل. وقد فازت لورا بالمرتبة الأولى بفارق كبير، وصل إلى عشرة آلاف صوت مقابل سبعة آلاف وخمس مئة صوت فاز بها صاحب المركز الثاني، وقد وجدنا أنفسنا منغمسين في مشروعها. لقد كانت تبعث رسائل بالبريد الإلكتروني يوميًّا، مرفقة بروابط تذكِّرُ الناس فيها بضرورة تصويتهم إلكترونيًّا لها».

قارنت جين بين ما فعلته هي وزوجها بما كان أولياء الأمور الآخرون يركزون عليه: «أولياء الأمور يأخذون أبناءهم في جولة تشمل جميع أرجاء المدينة لمشاهدة مباريات الكرات اللينة وكرة القدم، ولكننا حاولنا استثمار جُلَّ الوقت والجهد لدعم المشروعات التي وقفت نفسها لها. سوف تقول لك إنني كنت كثيرة التذمر لأنه لم يُتَحْ لي الوقت الكافي لأستمتع بجولات في سهوب أتلانتا، لكننا فعلنا ذلك على أي حال».

في الواقع لم تذكر لورا شيئًا عن الشكاوى التي ذكرتها والدتها، بل على العكس من ذلك، قالت لي: «إن والديَّ كانا يقدمان لي الدعم بصورة دائمة، وقد قدَّرا ما كنت أنجزه في المدرسة تقديرًا عاليًا؛ لكنهما فهما أيضًا أنني ذات شخصية مستقلة، وأن عليَّ اكتشاف ما هو مفيد لي بنفسي. لم يكونا متحمسينِ كثيرًا لبرنامج (ساعدوا أتلانتا)، وعندما بدأت بمشروع (اسبح من أجل أن تنجح)، لم يقولا لي إن عليَّ أن أفعل هذا أو ذاك.

ثم إنهما لم يبرمجا وقتي من الألف إلى الياء، بل كان لدي الوقت الكافي لأفكر فيما أرغب في فعله وتصميم ألعابي الخاصة بي... معظم أولياء الأمور يدفعون أبناءهم للتفوق في أحد الحقول الرياضية من أجل الالتحاق بجامعة راقية، ولا يتركون لأبنائهم فرصة لاستقصاء خياراتهم، وهذا يمثل فرقًا واضحًا من الناحية التطويرية».

عندما التقيت لورا للمرة الأولى كان عمرها تسع عشرة سنة، وكانت قد أنهت حينها السنة الأولى في جامعة تولين. طلبت إليها العودة بالذاكرة إلى سنتها الأخيرة في المرحلة الثانوية وتجاربها فيها.

قالت: «جهدت في المدرسة الثانوية كي أحصل على علامات جيدة، ليس لأنني كنت أهتم بالمحاضرات التي كانت مثيرة للملل إلى حد كبير، ولكن لكي أثبت أن لديَّ الدافع، وأن بإمكاني التركيز وإنهاء ما عليَّ فعله، لكن الضغط الناجم عن كثرة الاختبارات التي كان عليَّ اجتيازها تسبب في أذيَّة لطموحاتي الإبداعية، وكان مقرر الرياضيات أقل المقررات جاذبية بالنسبة إلي؛ ففيه كثير من التجريد، ولم تكن هناك طريقة إبداعية يمكنني من خلالها تطبيق ما كنت أتعلمه من ذلك المقرر، أو يستثير في داخلي أي أفكار يمكن أن أتشاطرها مع الجميع من حولي».

مع ذلك، فإن إحدى المدرسات في المرحلة الثانوية - وهي الآنسة برات - ألهمتني التفكير في أشياء بطرائق إبداعية، فتعلمت كيف أن مراوح القارب تقتل عجول البحر، وجعلتني تلك المعلومة - ككل طلاب الصف - نفكر في طريقة يمكننا من خلالها معالجة مثل هذه المشكلة ومثيلاتها من المشكلات».

سألتها: «كيف كانت سنتك الأولى في الجامعة؟».

«أنا أتخصص في الاقتصاد السياسي، وهو تخصص رئيس يشمل عدة حقول معرفية، مثل الفلسفة والاقتصاد والعلوم السياسية، ولم أكن أتصور نفسي أتخصص في تخصص رئيس ذي اتجاه واحد.

لكنَّ هناك ضغطًا كبيرًا لإنجاز كل ما هو مطلوب إنجازه، ولم يكن لدي ما يكفي من الوقت كي أستقصي موضوعات محددة تثير اهتمامي. ولو كان من الممكن احتساب ساعات معتمدة تضاف إلى رصيدي بسبب أنشطتي اللاصفية في مجال تنمية روح المبادرة الفردية - مثل إنشاء شركة تعنى بأطروحات متميزة - لكان ذلك أمرًا عظيمًا».

سألتها: «ماذا عن مهاراتٍ بعينها؛ مهارات تحتاجينها وتمنيتِ لو تعلمتِها في المدرسة؟».

«تحديد المشكلة»، كان جوابها الفوري، وتابعت: «هذا الموضوع في غاية الأهمية؛ فأنا لم أكن أعرف في حقيقة الأمر المشكلة التي كنت بأمسِّ الحاجة إلى العمل عليها عندما بدأت مشروع (اسبح من أجل أن تنجح). وقد تبيَّن لي بعد سنتين على ذلك، أن المسألة لا تتعلق فقط بموضوع منع وقوع حوادث الغرق، فوجود المتطوعين الذين أتوا من بيئات متعددة، والقدرة على استخدام المسابح الموجودة في حرم الجامعات، وتوافر الفرصة لأن يكون المرء متمرسًا برياضة معينة،

وما يترتب على ذلك من احتمال الحصول على منحة دراسية في إحدى الجامعات؛ كل ما تقدَّمَ كان يمثل وسائل يستطيع البرنامج من خلالها توفير فرص للشباب الفقراء والمحرومين. وكان مفيدًا جدًّا لو وجدت من يدرسني طرائق التفكير التي من شأنها حل تلك المشكلات بانتظام».

بقيت أنا ولورا على تواصل منذ أن التقينا أول مرة قبل سنتين (في الحقيقة، كانت تساعدني على البحث من أجل إتمام هذا الكتاب)، ولم تعد مرتبطة الآن ببرنامج (اسبح من أجل أن تنجح)؛ فهناك عديد من الطلاب في جامعة تولين يشرفون حاليًّا على هذا البرنامج، الذي أصبح الآن مشروعًا أصغر، وأُلحِق بجامعة تولين، ولم يعد ذلك المشروع الكبير غير الربحي المستقل بذاته كما تصورته بالأساس. أرسلت لي أخيرًا رسالة بالبريد الإلكتروني حول ما تعلمتْه من تلك التجربة قالت فيها: «منذ سنتين، كان من الممكن أن أتصور أنه مشروع خائب؛ لأنه لم يكن منظومة جديدة كبرى، ولكن تبيَّن لي الآن أن الحلول المحلية لا بأس بها، ومن الأفضل أحيانًا أن يعمل المرء من خلال المنظمات الموجودة فعلًا؛ لأنها أكثر موثوقية، فالقدرة على التحرك بين منهجيات مختلفة مسألة في غاية الأهمية، فمن المهم أن يكون المرء مرنًا ويستطيع أن يجد أفضل الأساليب لإحداث التغيير المنشود».

الجامعة: التحديات والفرص والمعلم الذي أحدثَ فرقًا إيجابيًّا

في شهر تموز/ يوليو، سنة 2011م، حين كان لورا تستعد للانتقال إلى سنتها النهائية في جامعة تولين، تحدثت إليها عن بعض المشروعات التي كانت تعمل فيها هناك، وعما تعلمته، والخطوات المحتملة بالنسبة إليها في مرحلة ما بعد الجامعة، فكان واضحًا من خلال حديثنا أن روح المبادرة ذات البعد الاجتماعي قد تبرعمت في فكرها، ولكن كان واضحًا بالدرجة نفسها أن التحدي المتمثل في الوفاء بمتطلبات دراستها في الوقت الذي تتابع فيه عملها بصفتها مبدعة اجتماعية، أصبح أكثر صعوبة.

«بدأت أشعر باهتمام متزايد بفكرة خلق تجارب تعليمية من أجل تطوير المهارات المتعلقة بالإبداع الاجتماعي؛ ولذا فقد بدأت العمل مع كارول ويلان التي كانت تدرِّس مقررًا بعنوان (التعليم في مجتمع متنوع) - وهو المقرر الأول الذي يسجل فيه الطلاب الذين يرغبون في الحصول على وثيقة في أهلية التعليم - من أجل إضافة مكون قيادي ذي بُعْدٍ اجتماعي إلى المقرر. هذا الجزء من المقرر يقوم على تعليمه الطلاب أنفسهم، ويُقصَدُ منه تطوير المهارات

غير الأكاديمية؛ مثل الابتكار، وتعزيز الروح التشاركية، وقد بُدِئَ بتدريس هذا المقرر في الخريف الماضي، وأبدع الطلاب عددًا من الأفكار التي تتناول موضوع التغيير الاجتماعي؛ ستٌّ من هذه الأفكار ما تزال مستمرة حتى الآن.

أحد الأمثلة على ذلك كان طالبًا يدرس الموسيقى في جامعة تولين، وكان يعمل مع مدرس للموسيقى في إحدى المدارس الحكومية في مدينة نيو أورلينز، وقد علم أن تمويل برنامج الجوقة كان ضعيفًا، وكان بحاجة إلى متطوعين؛ ولذا فقد اقترح أن يذهب الطلاب الذين يدرسون الموسيقى في جامعة تولين إلى تلك المدرسة، والعمل مع الطلاب في المدرسة من أجل تطوير أدائهم الجماعي لجمع تبرعات لتمويل البرنامج. طالبة أخرى كانت تعمل في مدرسة تركز كليًّا على رفع مستوى أداء الطلاب الذين كان أداؤهم الأكثر ضعفًا في الاختبارات، لكنها لم تكن تقدم شيئًا للطلاب الناجحين، ولذلك فقد طورت برنامجًا إثرائيًّا لهؤلاء الطلاب بعد انتهاء الدوام المدرسي.

طيلة السنة الماضية أو نحو ذلك، كنت عضوًا في مجموعة أطلق عليها (حلقات المواطنين) (Citizen Circles). كانت الفكرة من هذه المجموعة هي دعوة عدد من الناس لعرض مشكلة محلية، أو مشروع، أو حاجةٍ يحددون هم طبيعتها، ثم بعد ذلك يتشاركون فيما يكونون قد اطلعوا عليه في معرض إحداث تغيير على أوضاعهم، ولقد تعلمت من هذا العمل بالتعاون مع زميلي ألان ويب أكثر مما تعلمته من معظم أساتذتي في جامعة تولين.

كنت أساعد ألان، وشخصًا آخر أيضًا اسمه جيف بوردوغنا، في فكرة مشروع (نسخة حية طبق الأصل) الرقمي، وهو أسلوب يمكن أن يتبعه الناس في توثيق العمل الذي يفعلونه بصفتهم مبدعين اجتماعيين يعملون ضمن جماعة معينة، ويجمعون تقويمات من أشخاص سبق لهم العمل معهم، وكنا نعمل بالتعاون مع جامعة تولين من أجل تطوير نموذج أو أداة تقويم لبرامج الإبداع الاجتماعي في الجامعة كجزء من هذا الجهد.

أعتقد أن قدرتي على تصميم نوع التعليم الذي أَنشُدُهُ قد بدأ يتبلور بصورة أكثر وضوحًا، وقد موَّلتْ جامعة تولين رحلتي الدراسية إلى أوروبا في الشتاء الماضي، التي أجريت خلالها بحوثًا ودراسات بنفسي، وزرت عددًا من المدارس التي تضم نماذج باهرة لبرامج تعليم

إذكاء روح المبادرة الاجتماعية، وكانت هذه الرحلة إحدى أفضل خبراتي العلمية في الجامعة حتى الآن.

عدت من فَوري من (أسبوع أشوكا لصانعي التغيير) في باريس، وأصبح واضحًا جدًّا بالنسبة إلي أن هناك حاجة ملحة إلى تحديد سلسلة متصلة وإطار لمهارات صانع التغيير والكفاءات التي يمكن أن تستعملها المدارس والشركات والمنظمات أو المؤسسات غير الربحية، وتفيد منها. أردت الغوص في عمق هذا الموضوع ليكون جزءًا من أطروحة التخرج التي سأتقدم بها السنة القادمة. وكانت شركة دولويت فرانس (Deloitte France) أحد ممولي هذا المؤتمر، وقد دعاني أحد الشركاء الإداريين فيه إلى الغداء، وذكر لي أن الشركة تحتاج إلى مثل هذه الكفاءات، وقد كان يسعى إلى أن يكون كل عامل في تلك الشركة (صانعًا للتغيير).

عندما أعود لاستئناف الدراسة في جامعة تولين الخريف القادم، سأتابع العمل على طرح مزيد من المقررات التي سيدرسها الطلاب، إضافة إلى التخصص الرئيس في مجال الإبداع الاجتماعي. وأرغب أيضًا في العمل مع زملائي في الجامعة على إنشاء مدرسة تعنى بالإبداع الاجتماعي، بالشراكة مع مجموعة (دوائر المواطنين)، إذ إنها مصدر مفتوح، وهي جماعة يتواصل أفرادها بعضهم مع بعض إلكترونيًّا من أجل تنظيم مجموعات تدرس موضوعات مثل حل الصراعات، وإدارة المشروعات، لحساب المبدعين الاجتماعيين.

أشعر بالتوتر حيال السنة القادمة، وما يمكن أن يحدث فيما بعد، فمن الصعب أن تكون طالبًا وتحصل على الساعات المعتمدة المطلوبة للتخرج. أنا بحاجة ماسة إلى التخرج كي أتفرغ بعد ذلك لإنجاز تلك المشروعات المتعددة... وأرغب في متابعة دراستي العليا لأتخصص في مجال الكشف عن أصحاب الكفاءات الراغبين في أن يصبحوا مبدعين اجتماعيين، وتعليمهم، وتقويم أدائهم، ولكن ليس لدي علمٌ بأن هناك قسمًا في الدراسات العليا يطرح مثل هذا البرنامج».

أخبرتني لورا بوجود شخصين في جامعة تولين أبديا دعمًا خاصًّا لما تفعله. وقد قالت لي ستيفاني باركسديل، وهي مساعِدة خاصة لرئيس قسم مبادرات الريادة الاجتماعية، وعملت مع لورا على عديد من المشروعات، قالت لي: «أعطيت إذنًا خاصًّا للورا لتنفيذ مشروعات كانت متحمسة لها كثيرًا، وقد كانت تبدو أحيانًا مترددة حيال بعض المشروعات، ولكنني كنت

أشجعها بترداد عبارة (لا بأس)؛ أعتقد أن عليك فعل ذلك. امنحْها الإذن وسوف تُبرعِم، فعلى سبيل المثال أرادت تنظيم مؤتمر من خلال موقع (TEDx) في جامعة تولين، فلم أقدم أي شيء لمساعدتها باستثناء التفوه بعبارة: (أجل) يمكنك فعل ذلك، ومن ثم استطاعت الحصول على تمويل، كما حصلت على الاعتماد من موقع (TED)، ورتبت وحدها البرنامج» (TED هو موقع غير ربحي، يمول المؤتمرات التي يقدِّم فيها المتحدثون (أفكارًا تستحق النشر)، وهو كذلك يمثل جملة من المؤتمرات التي تنظَّم بصفة مستقلة، ويفوِّض هذا الموقع أيضًا القائمين على المؤتمرات باستخدام اسمه)[3].

أضافت ستيفاني تقول: «أرى عديدًا من الطلاب الذين ترتعد فرائصهم من فكرة الإخفاق، وهو ما يجعلهم يمتنعون حتى عن محاولة فعل شيء ذي معنى».

المشرف الآخر على لورا كان الدكتور جون هوارد، وكان مرشدَها الأكاديمي، وقد قالت لي لورا: «لقد قدم لي كل الدعم الممكن لمتابعة ما أريد أن أتعلمه»، وأضافت أنه لولا الدكتور هوارد لكانت انتقلت إلى جامعة أخرى.

حصل جون هوارد على شهادة الدكتوراه في مجال الفلسفة من جامعة تولين، وهو الآن يعمل بصفة مساعد مدير معهد موري في التابع للجامعة، حيث كُلِّف بإدارة التخصص الرئيس في الدراسات الجامعية الأولى في حقل الاقتصاد السياسي. وهو منهمك بصورة مستقلة عن وظيفته في المعهد في عدد من المشروعات المتعلقة بالإبداع الاجتماعي والريادة في المعهد. أمر سكوت كاوين، رئيس جامعة تولين، في أعقاب الكارثة التي أصابت مدينة نيو أورلينز بسبب إعصار كاترينا المدمِّر، بطرح متطلب جديد في الجامعة بصفته شرطًا من شروط التخرج في مجال خدمة المجتمع. وقد درَّس جون مقررًا يسمى (الخدمة العامة والقيادة المدنية)، وفيه يكتب الطلاب بصفة تشاركية ورقة تحليلية حول السياسة الداخلية تتعلق بتطبيق وتحسين المظاهر الخاصة بمتطلبات خدمة التعلم في الجامعة، وإعدادها كي تكون مشروعًا للتخرج بالنسبة إليهم.

قال لي جون: «أومِنُ بقوة بفكرة طرح برنامج دراسي ينجزه الطلاب أنفسهم، ولكنني أعتقد أن من الضروري هيكلة هذا البرنامج؛ ولذا فأنا أعطي الطلاب النتيجة - التي تكون في هذه الحالة تقريرًا إلى الإدارة يتعلق بتحسين خدمة برنامج التعلم - لكن الطلاب هم من

يقررون كيفية إجراء البحث، وتقرير طبيعة محتوى ما نطلق عليه تعبير الورقة الخضراء. من النادر جدًّا في الوسط الجامعي أن تكون لدى الطلاب فرصة للعمل على مشروع حقيقي مثل هذا المشروع، وما أهدف إليه هو جعل الطلاب مشاركين فاعلين في عملية التعلم الذي يتلقونه بدلًا من أن يكونوا مجرد زبائن؛ وذلك من خلال تمكينهم من إحداث مثل هذه التغيرات، فعلى سبيل المثال أوصت إحدى مجموعات الطلاب التي تدرس المقرر الذي أدرِّسه أنا شخصيًّا بهيكلة المقررات حول خدمة أنشطة تعليمية محددة، بدلًا من أن يكتشف الطلاب بعد بدء الدراسة في هذا المقرر ماهية وطبيعة خدمة التعلم، ولكن لسوء الطالع كانت الإدارة في أغلب الأحيان تتجاهل التوصيات التي يرفعها الطلاب إليها، وكان هذا يسوِّغ أن إدارة مثل هذا النظام ستكون صعبة جدًّا خلال عملية التسجيل في الجامعة».

أصبح جون أخيرًا مشاركًا في مبادرات الريادة الاجتماعية التابع لمكتب ستيفاني باركسديل، ونظرًا إلى أنها ترفع تقاريرها مباشرة إلى رئيس الجامعة، فإن (حلقة القيادة) - كما أوضح جون - «تصبح أكثر انسيابية، ويصبح لأفكارنا نصيب أكبر في أن تُسمَعَ من قبل أصحاب الحل والعقد، ولذلك ففي هذا الفصل أطلقنا برنامج زمالةٍ جديدًا حول الإبداع الاجتماعي من أجل أشخاص مثل لورا، الذين يريدون تسويق برامج ريادة اجتماعية وفرصٍ للطلاب الآخرين. إضافة إلى أن ذلك البرنامج لم يتأثر سلبًا بالمقاومة التي يمثلها متطلب خدمة التعلم الذي ساد بعض أوساط هيئة التدريس في الجامعة، وهو أيضًا ذو صلة وثقى مع طيف أوسع من الطلاب. في هذا الوقت، نشرك الطلاب أكثر فأكثر في تصميم البرنامج بصفته جزءًا من هيكلية نطلق عليها مركز المشاركة في التعليم والتعلم. ما نريد فعله في المقام الأول هو التأسيس لفكرة تعيين أعضاء هيئة تدريسية قوامهم من طلاب الدراسات الجامعية الأولى.

سألت جون عن طبيعة عمله مع لورا، فأجاب:

«التقيت لورا للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات عندما اتخذت الاقتصاد السياسي تخصصًا رئيسًا لها. وقد أظهرت التزامًا قويًّا جدًّا بإثبات كفاءتها في خوض غمار عديد من الاختصاصات المختلفة، وكانت تظن أنه كي تنجز عملها على الوجه الأكمل، عليها أن تحيطَ بالاقتصاد السياسي والاقتصاد والفلسفة والتاريخ؛ وهي اختصاصات تدرَّس تحت مظلة مقرر الاقتصاد السياسي، وبرنامجنا يستقطب أيضًا طلابًا مثل لورا ممن لديهم مهارات كمية ومهارات نوعية. وبسبب نظام التخصصات الرئيسة التقليدي في الجامعة، فإننا غالبًا ما نحاول إحالة

الطلاب إلى متخصصين، وذلك في المراحل الأولى من دراستهم الجامعية التي يمكن أن تنتهي إلى اختصاصات قد لا يكونون راغبين في دراستها أساسًا.

بدأتُ في الفصل الدراسي الماضي بدراسة مقررات في مجال التربية، ومع حلول الأسبوع الثالث من ذلك الفصل كانت في واقع الأمر تدرِّس ذلك المقرر بالمشاركة، وقد اعترفت الأستاذة كارول ويلان بكل جرأة بالخبرة التي أظهرتها لورا من خلال تجربتها التدريسية. لقد كانت لورا بالنسبة إلى كارول مثالًا على ذلك النوع من الطلاب الذين لم يسبق لها أن التقت بمثلهم قط. وهذا ما يجب أن تكون عليه الأمور؛ لا يجوز أن ننظر بطريقة متعالية إلى أفكار الطلاب وإبداعاتهم.

لمست بنفسي جرأة لورا، وذهنها المنفتح، وصراحتها، وقدرتها على طرح ما تؤمن به مباشرة وفورًا، ولكنها ليست من ذلك النوع الذي يحاول فرض نفسه على الآخرين؛ وهي كذلك لا ترفع من نبرة صوتها أو ترغي وتزبد، ولا تبالغ في إظهار ثقتها بنفسها، ولن تسعى إلى إقناعك أن لديها فكرة جيدة من خلال التسويق أو من خلال العلاقات العامة، بل من خلال قوة أفكارها، فالتزامها بالعدالة الاجتماعية هو أمر فيه كثير من المصداقية والموثوقية، فهي لا تجيد التملق أو تحاول أن تضيف إلى سيرتها الذاتية.

لورا تقطف ثمار أفضل ما أنتجته الديموقراطية الاجتماعية حيث يجازف بعض الأفراد ويتوصلون إلى نتائج مذهلة بسبب قدرتهم على إلهام أناسٍ آخرين. إنها ذات شخصية قيادية هائلة، وتمثل رصيدًا كبيرًا للجامعة، وهي ممن سوف يتركون بصمتهم الإيجابية على الصعيد الأبداعي؛ بدلًا من الصعيدين الاقتصادي والسياسي. ولو كانت جائزة هيسمان - وهي كأس نمنحه لأفضل لاعب كرة قدم جامعي في البلاد - على الصعيد الوطني تمنح لأفضل مَنْ عمل في حقل الخدمة العامة، لكانت لورا هي من استحق الفوز. إنها لا تقبل سماع عبارة أن شيئًا ما لا يمكن فعله أو إنجازه؛ ومع ذلك فهي شخصية براغماتية ترفض تمامًا أن تخفض من مستواها.

سألت جون: «كيف يمكننا تنمية قدرات أشخاص يشبهون لورا وايت وتقديم الدعم لهم؟»، ساعدني جوابُه عن هذا السؤال على استيعاب تعليقات ستيفاني باركسديل على ما فعلته لورا

وآخرون من جيلها، الذين كانوا بحاجة إلى الحصول على إذن خاص أحيانًا لفعل ما يلزم لتحقيق طموحاتهم.

«أولًا، علينا أن نُبدي تقديرنا لما يفعله شباب على شاكلة لورا، الذين يمكنك أن تراهم في كل مكان. هناك ميلٌ داخل أوساط أعضاء هيئة التدريس (المتمرسين) للتعامل مع الصراحة على أنها ضرب من السذاجة، فهم يرون مثلًا أن الإيمان بالعدالة الاجتماعية يعكس عجزًا عن استيعاب عالم الواقع وانفصالًا عنه، ولكن معاملة الطلاب بهذه الطريقة تُعدُّ إساءة بالغة الخطورة عليهم.

البديل عن ذلك يحتِّم علينا تشجيع الطلاب على التعبير بصراحة عن أفكارهم، ودعم مواقفهم المتعاطفة مع المحتاجين، والتزامهم بالعدالة. هناك كثير من الطلاب الذين يمكن أن يكونوا مثل لورا إلا أنهم لم يُعطوا الفرصة للسير في مثل هذا الاتجاه لأن أحدًا قد قال لهم إنهم لا يتمتعون بقدرٍ كافٍ من الوعي، أو إنهم يبالغون في حساسيتهم. وهناك أعداد أكبر بكثير مما نظن يهتمون بالمصلحة العامة، وأنا أمضي جلَّ وقتي باحثًا عن هذه المزايا في أوساط الطلاب، وأحاول تشجيعهم ومد يد العون لهم في هذا المنحى.

إحدى الطرائق التي أتبعها بصفتي مدرسًا - استنادًا إلى هذا الاعتقاد - تكمن في أنني وبدلًا من إخضاع الطلاب للاختبار، أدوِّن أحاديث مع الطلاب في المحاضرات. أطلب إلى الطلاب كتابة مقالات تراوح بين 750 و1000 كلمة أسبوعيًّا، ثم أكتب ردًّا على مقالاتهم مقالة بالحجم نفسه وأوزعها عليهم. وأخصص جزءًا من وقت المحاضرة أسبوعيًّا يتداول خلاله الطلاب نقاشًا بينهم حول أفكارهم، من دون أي تدخل من قبلي، فأنا أومن أن تحميل الطلاب مسؤولية مساعدة بعضهم بعضًا يزيد من معدل التعاطف بينهم، والرغبة في أن يدعم الواحد منهم الآخر».

سألته: «أنت موظف هنا بدوام كامل أم مثبت في وظيفتك؟».

أجاب: «أنا في هيئة التدريس، ولكن لن يتم تثبيتي في الوظيفة أبدًا؛ فأنا لست عالمًا أو باحثًا، ومن المؤكد أنني أقدِّر من ينجزون مثل هذه الأشياء، ولكنني لست من هؤلاء؛ فأنا مدرس، ووظيفتي هي أن أكون في غرفة الصف، وأتواصل مع الطلاب. وأي شيء آخر يأخذني من هذا الجو، أعدُّه شيئًا مفروضًا عليَّ، ولكنني لا أنصح الآخرين بأن يسيروا في هذا الاتجاه؛ فقد

كافحت كثيرًا، وبقيت من دون عمل مدة طويلة؛ لذا فأنا أعد نفسي محظوظًا لكوني وصلت إلى ما أنا فيه الآن.

الوظيفة الدائمة تستوجب (التدريس، وإجراء البحوث، وأن يكون الشخص المعني من عداد العلماء)، ولكن تقويم هذه المواصفات يكون بناء على معطيات تقليدية جدًّا، وذلك من أجل ضبط هذه العملية بسهولة ويسر. فيما يتعلق بالتدريس، ماذا لو قالت الجامعات: «إن ما نبحث عنه هو الدليل على وجود إبداع ناجح؛ قدِّموا لنا شيئًا يبين لنا قدرتكم الفريدة على إلهام الطلاب»، لو أرادت الجامعات أن تقتصر في شروطها على الإنتاج العلمي المنشور، فهذا أمر حسن؛ ولكن لا تحاولوا تطبيق ذلك في القاعات الدراسية. أو ربما يجب علينا أن نتعاقد مع فريق أكاديمي يعنى فقط بشؤون البحث، ونادرًا ما يكون له أي تواصل مع الطلاب، وفريق تدريسي ليس عليه أن يقلق من نشر أي بحوث علمية. سوف يؤدي هذا بالتأكيد إلى خلق مشكلات، وسيكون كذلك صعب التحقيق، لكنني أظن أن مثل هذا الأمر سينعكس إيجابيًا على الطلاب».

(تنشئة) المبدع الاجتماعي

والدا لورا شجعاها على ممارسة أنواع استقصائية من اللعب في طفولتها، تقول: «لم يعمد والداي إلى برمجة وقتي لآخر دقيقة، فكان لدي ما يكفي من الوقت كي أفكر وأبتكر ألعابي الخاصة بي»، من جانبهما أظهر دون وجين وايت قدْرًا من التحدي للتقاليد المعمول بها من قبل أولياء الأمور في منطقة الضواحي التي كانا يعيشان فيها، وقدَّما كثيرًا من الدعم لقرار لورا بالاستنكاف عن متابعة رياضة السباحة بصورة تنافسية، والتركيز بدلًا من ذلك على الانخراط في مجال الخدمة الاجتماعية.

لقد شجعاها على أن تروي شغفها المتمثل بالريادة الاجتماعية، وساعداها كذلك على جمع التبرعات لحساب المنظمات والجمعيات غير الربحية؛ حتى إنهما ركبا بعض الأخطار عندما أقلَّاها بالسيارة إلى مناطق غير آمنة في مدينة أتلانتا حيث كانت تسعى إلى إنجاز بعض المشروعات الخدمية طيلة مرحلتها الثانوية التي استمرت أربع سنين.

نلاحظ أيضًا كيف أن حماسة لورا تحولت إلى هدف واضح المعالم يتمثل في استيعاب المهارات التي يجب أن يتحلى بها صانعو التغيير، واتباع الطريقة المثلى لتعليم هذه المهارات

وتقييمها. كانت دربها باتجاه هذا الهدف غير واضحة المعالم؛ لأن الأسئلة التي كانت تطرحها جديدة نوعًا ما، وكان عليها أن تكيّفَ نفسها مع نمط التعليم المعمول به، أو تبتكر نوعًا جديدًا من التعليم الذي ترغب فيه وتحتاج إليه. أما المقرر الذي علَّمها أقصى ما ترغب في تحصيله في مجال الابتكار، وكيف تصوغ أسئلة جيدة وتطرحها، كما قالت لي، فقد كان الكتابة المسرحية.

من عدة زوايا، كان الأمر أصعب على لورا، بصفتها مبدعة اجتماعية، بالمقارنة بالمبدعين الشباب في حقول العلوم والتقانة والهندسة والرياضيات. أولًا، كما ذكر جون هوارد، هناك توجه لاعتبار أن المثالية عند الجيل الشاب، والاهتمام بمسألة غياب العدالة الاجتماعية، يعكسان سذاجة أصحابهما. وأعتقد أن شمولية هذه المواقف عند كثير من البالغين في مجتمعنا تفسر السبب الذي دفع لورا إلى التردد أحيانًا من حيث المبدأ في طرح بعض أفكارها. لا يشجع نظامنا التعليمي على المخاطرة والانخراط في مبادرات فردية، كما أنه يعاقب على الإخفاق، إضافة إلى أن عديدًا من أولياء الأمور والمدرسين يعتقدون أن المهنة (الآمنة) والمثمرة ماديًّا في مجال التجارة وإدارة الأعمال أو القانون أو الطب هي ما يجب على الجيل الشاب أن يسعى إلى التخصص فيها، وليس العمل ضمن نطاق توجُّه ذي صلة (بتغيير العالم).

ثانيًا، هناك سوابق معدودة جدًّا لطريقة في تعليم الفنون الليبرالية؛ مبنيةٍ على مشكلة يتعين على جهة ما المساعدة على حلها. في رسالة وجهتها لي لورا بالبريد الإلكتروني، كتبت ما يأتي: «لا توجد بالتوازي مع الدروس التي تركز على تعلم الخدمات، دروس تعتمد على طرح المشروعات بالنسبة إلى طلاب الفنون الليبرالية كما هي الحال بالنسبة إلى طلاب الهندسة والعمارة». ترغب لورا بشدة في تعلُّم النظرية التي يستند إليها الإبداع الاجتماعي والتغيير، لكنها تعتقد أن ذلك يجب أن يكونَ في سياق مشروع حقيقي، ففي إحدى المدارس التي درست بها خلال رحلتها إلى أوروبا - واسمها كاوس بايلوت (KaosPilot) - يبدأ الطلاب بالعمل على مشروعات مستلة من العالم الحقيقي، وبعدها يبدؤون بتعلم الجانب النظري المهم والمتعلق بمشروعاتهم.

شرحت لورا فكرتها حول هذا الموضوع على الوجه الآتي: «أظن أن الجامعة برمَّتها يجب أن تدور هيكلتها حول تجارب الطلاب وما يفعلونه، والتحديات التي يواجهونها. ربما ألقى ذلك أعباء إضافية على كواهل الأساتذة، وضغطًا لوقتهم، وربما تتطلب الأمر منهم أداء دور مختلف، إن الدفع باتجاه نشر بحوث من أجل التثبيت في الوظيفة يمثل مشكلة كبرى أيضًا،

ولا أعتقد أنهم سوف يبرمجون أجندة بحوثهم استنادًا إلى التحديات التي يرغب الطلاب في مواجهتها واستقصائها». كانت المقررات الدراسية المستقلة التي صممتها بالتعاون مع جون هوارد الفرصة الحقيقية الوحيدة التي أهَّلتْها للحصول على تقديرٍ لقاءَ جميع المشروعات، وتلقِّي المساعدة لربط ممارسة التغيير بالنظرية، لكن عدد المقررات الدراسية المستقلة التي يمكن أن يسجل فيها الطلاب بصورة متزامنة كجزء من متطلبات التخرج، محددٌ باثنين فقط.

يهدف جون هوارد - شأنه في ذلك شأن جميع المدرسين الآخرين الذين التقيناهم حتى الآن - إلى الدفع بالطلاب نحو الأمام من خلال منحهم الإحساس بالقوة؛ فهو يناضل من أجل أن تكون أصواتهم - بصفة كونهم أفرادًا - مسموعة، وكذلك من أجل تنمية حوافزهم الداخلية، في الوقت الذي يعمد إلى هيكلة المشروعات بطريقة يستطيع من خلالها الطلاب العمل بصفة تشاركية، واستخدام حقول معرفية متعددة لفهم واستيعاب مشكلات عالم الواقع. إنه مدرس موهوب جدًّا، تمامًا مثل المدرسين كافة الذين التقيناهم في حقول العلوم والتقانة والهندسة والرياضيات، ولكن لسوء الحظ فإن جون هوارد هو آخر عضو في نادي المدرسين من خارج الملاك الذين لن تتاح لهم الفرصة أبدًا للحصول على وظيفة دائمة.

النزول من البرج العاجي: (بوصلة أخلاقية) جديدة للجامعات

رأينا المرة تلو الأخرى في القصص التي سردناها كيف أن ثقافة عالم الأكاديميا، والمتطلبات التقليدية للحصول على وظيفة دائمة، تتناقض مع المقاربات حول التعلم المبني على المشكلا ،ت ومد يد المساعدة من أجل حلها، والتي يحتاجها مبدعونا الشباب. يعدُّ العالَم الأكاديمي أن رسالته تنحصر في إنتاج المعرفة (الصِّرْف) ونقلها، بعيدًا عن أي نوع من أنواع التطبيق العملي لها، أو تطوير مهارات بعينها. إن إطلاق وصف (البرج العاجي) على الجامعات لم يأتِ من فراغ، ولكن القيادة الرؤيوية لرئيس جامعة تولين، سكوت كاوين، جعلت جامعة تولين تبحث في طرائق جديدة تستطيع من خلالها تقديم خدمة لسكان مدينة نيو أورلينز، وطلاب الجامعة نفسها على حد سواء.

قال لي سكوت: «لقد دمر إعصار كاترينا بالكامل تقريبًا مدينتنا وجامعتنا، وفي أعقاب ذلك الإعصار بدأت أفكر في مستقبل جامعتنا. ما تعلمته من الكارثة التي سببها لنا إعصار

كاترينا هو التأكد من إمكان وجود بوصلة إبداعية مختلفة توجِّه الجامعة في الوقت الذي نسير قُدُمًا بعد الإعصار؛ أي إعادة النظر في رؤيتنا لرسالة هذه المؤسسة.

ولكون جامعة تولين مؤسسة بحثية كبرى، فلا بد من التنبيه إلى أن رسالة جامعتنا تتميز بوجود مكونات ثلاثة: البحث، والتعليم، وخدمة المجتمع. لكن مُكَوِّنَ خدمة المجتمع كان دائمًا بمنزلة ابن الزوج أو الزوجة بالمقارنة بالبحث أو التعليم. فلو أنجزت عملًا أديت فيه (خدمةً للمجتمع)، فهذا لطفٌ منك، ويمكن أن تُكتب عنك مقالةٌ تُمتَدَح فيها لحسن صنيعك، ولكن النظام التعليمي لا يمنحك اعترافًا رسميًّا بأن ما فعلته يمكن أن يضاف إلى رصيدك الأكاديمي. ثم إن خدمة المجتمع ليست مرتبطة بأي صورة بمخرجات التعليم أو مخرجات البحث. ومن ثم خلصنا إلى نتيجة مفادها أن علينا رفع مستوى مكوِّن الخدمة الاجتماعية، بحيث يوازي في أهميته مُكوِّنيِ البحث والتعليم، وكان علينا أيضًا إيجاد طرائق للربط بين المكونات الثلاثة بصورة أكثر قوة ومتانة، وقد حددنا هذا الهدف بوصفه بوصلتنا الإبداعية للقرن الحادي والعشرين.

نحن الآن نطلق على هذه المبادرة اسم (تولين - التمكين)، وهناك الآن سبع ركائز لإستراتيجيتنا. بدأنا المبادرة بالركيزتين الأولى والثانية، وهما التعليم الحكومي والصحة المجتمعية هنا في مدينة نيو أورلينز. كِلا النظامين تعرضا للدمار بفعل الإعصار. بدأنا العمل مع عدة منظمات مجتمعية من أجل المساعدة على تطوير خطط جديدة لتقديم الرعاية الصحية والتعليم الحكومي، وقد أُنجز تفعيل هاتين الخدمتين الآن.

الركيزة الثالثة في مبادرتنا تتوجه إلى الجيل الثاني من المواطنين والقادة المحليين الداخلين في نطاق مبادرتنا، أردنا استلال كمٍّ أكبر من التقدير لما نفعله في مجاليِ الخدمات العامة والإبداع الاجتماعي، وعليه؛ فقد أصبحنا الجامعة البحثية الكبرى الأولى في البلاد التي أضافت مقرر الخدمات الاجتماعية إلى برنامجها الدراسي».

بعد ذلك، قدَّم كاوين وصفًا مختصرًا للركائز الأربع الأخرى: طبيعة ردة الفعل على الكارثة والمرونة؛ وإعادة إحياء مرافق المدينة والفنون الثقافية؛ ومركز التعلم والتعليم الإلزامي، والإبداع الاجتماعي. شرح سكوت هذه النقطة بالقول: «نريد أن نعزز في نفوس طلابنا فكرةَ أن دورهم يتمثل في إيجاد حلول للمشكلات المجتمعية الصعبة».

سألت سكوت عن بعض التحديات التي واجهوها في تطوير هذه الرسالة الجديدة للجامعة؛ فأجاب:

«كانت هناك عديد من التحديات؛ فبدايةً لم يتبنَّ أعضاء الهيئة التدريسية هذه الأفكار، ويعود ذلك جزئيًّا إلى حقيقة أننا اتخذنا بعض هذه القرارات في الفصل الذي أغلقت الجامعة أبوابها بعد الفيضانات، ومن ثم لم يكن بمقدورهم أداء دور كبير في عملية اتخاذ القرار وكان يمكنهم فعل ذلك في الأوضاع الطبيعية، ومع مرور الوقت تلاشت تدريجيًّا مقاومة هذا المشروع.

وكان التحدي الثاني يتمثل في تحفيز أعضاء هيئة التدريس من أجل الانخراط والمشاركة في هذا المشروع؛ وقد اكتشفنا طرائق متعددة لفعل ذلك؛ كل شيء بدءًا من التخطيط للمنح من أجل تحويل المقررات إلى عملية تعلُّمٍ خدمية، وصولاً إلى استحداث موقع كرسي للأستاذية في مجال الإبداع الاجتماعي.

أما التحدي الثالث فكان يتمثل في بعث رسائلَ حول محتوى ما كنا نفعله إلى جميع الجهات المعنية التي نتعامل معها؛ وقد تطور هذا التحدي مع مرور الوقت. عندما بدأت بالحديث عن هذه الأفكار، كان بعض الخريجين يحدِّقون بي بعيون فارغة ويقولون: «ما الذي حدث لهذه الجامعة الآن، هل أصبح اسمها معًا على الطريق؟ ماذا حدث للتعليم والبحث؟». لقد تعلمنا من خلال هذه الأحاديث التمهيدية كم هو مهمٌّ قيامنا بتطوير هذه القضية المُلزِمة كي نحقق ما كنا نسعى إليه. واستغرق الأمر منا عدة سنوات كي نجد الطريقة المناسبة لشرح كيفية عمل هذه البوصلة الإبداعية، وكيف تساعد على تقوية المجتمع والجامعة، وكيف تساعد الجيل الآتي من الشباب على أن يكونوا مواطنين أكثر تأثيرًا وأكثر تفاعلًا».

سألته: «هل الطلاب الذين تقدموا بطلب للالتحاق بجامعة تولين اليوم لديهم حوافز مختلفة عن أقرانهم في السنوات السابقة؟»، أجاب قائلًا:

«لا شك في ذلك؛ فطلبات الالتحاق بالجامعة ازدادت بمعدل الضعف أو أكثر في السنوات الأربع الماضية، وعندما نطَّلع على المقالات التي يكتبها الطلاب الملتحقون بالجامعة، فإننا نلاحظ أن أكثر من 80% منهم يقولون إنهم تقدموا للالتحاق بهذه الجامعة لأن رسالة خدمة المجتمع التي عممتها الجامعة كان لها وقعٌ حسنٌ في نفوسهم. وقد قلَّص ذلك من مدة بقائهم في الجامعة، كما حسَّنَ معدل التخرج بالنسبة إلى كثيرين منهم؛ لأن الطلاب يلتحقون بهذه

الجامعة الآن للأسباب الصحيحة، بدلًا من التحاقهم بها لأسباب تتعلق بقضاء أوقات ممتعة في مدينة نيو أورلينز بصورة رئيسة. حدث أمر آخر لم أكن أتوقع حدوثه؛ وهو أن هناك كثيرًا من أعضاء هيئة التدريس المتميزين يتقدمون للانضمام إلى مجال هيئة التدريس في جامعتنا؛ وذلك بسبب الرسالة الجديدة للجامعة».

سألته: «وماذا عن معايير قبول الطلاب في الجامعة؟ أنا أعلم أن ترتيب أي جامعة يعتمد اعتمادًا رئيسًا على معدل اختبار الاستعداد الدراسي (SAT)، واختبار الكلية الأمريكي (ACT)، وكذلك على معدل الاختبار العام للطلاب الراغبين في الالتحاق بالجامعة؛ ولكن بحكم خبرتي في هذا المجال، لا تفيدنا هذه المعدلات بشيء فيما يتعلق بقدرات الطلاب على المساهمة الفاعلة وذات معنى في حقل الإبداع الاجتماعي وخدمة المجتمع. كيف تتعاملون مع هذه المسألة؟».

اعترف سكوت قائلًا: «هذا الأمر يؤرقني يوميًّا، فأنا أعرف أنَّ معدلات الاختبارات هذه ليس ذات معنى كبير، ولكنها واحدة من أدوات القياس التي تعتمدها صحيفة يو إس نيوز أند ورلد ريبورت، ولهذا فنحن لا نستطيع تجاهلها. تُعدُّ قضية الاختبارات، وكيف يمكننا استعمالها هنا معضلة دائمة بالنسبة إلي؛ ولم أجد مخرجًا لهذه المعضلة حتى الآن».

«كيف يتراءى المستقبل لك؟ أين تريد أن ترى هذه المبادرة بعد خمس سنوات من الآن؟».

«نحن نعمل الآن على تطبيق فكرة لبرنامج دراسي واسع المدى لطلاب المرحلة الجامعية الأولى في مجال الإبداع الاجتماعي - تخصص رئيس ثانوي. وأتوقع أن ننجزه خلال سنتين من الآن، وقد أسسنا في السنة الماضية خمسة مواقع لأساتذة من ذوي الكرسي في مجال الريادة الاجتماعية، وخلال السنوات الخمس القادمة أود أن أزيد هذه التعيينات إلى خمسة وعشرين من الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا مثلًا أعلى بالنسبة إلى زملائهم على امتداد ساحة الجامعة. البحث الأكاديمي التقليدي ما يزال هو العملة الرائجة ذات القيمة العليا في النظام الأكاديمي، لكننا نبحث بصورة متزايدة عن دليل على الإبداع في مجاليّ التعليم وخدمة المجتمع كجزء من عملية المراجعة للتعيين في وظيفة دائمة. نريد أيضًا إشراك زملائنا من جامعات مرموقة ومختارة في نقاشات حول الطريقة التي يمكننا من خلالها أن نزيد من أهمية الخوض في غمار الخدمة الاجتماعية».

تأثير جامعة أشوكا

الجهود المبذولة للترويج لهذه الرؤية لجامعة أكثر انخراطًا في المسألة الاجتماعية خطت خطوة مهمة إلى الأمام في خريف سنة 2008م عندما أطلقت جامعة أشوكا برنامجًا جديدًا يدعى (جامعة أشوكا) (Ashoka Uni). وكان الهدف من هذا البرنامج هو «ربط الجهود بين الجامعات من أجل تحسين مستوى التعليم والبحث، وفرص الانخراط في مجال الريادة الاجتماعية، داخل الحرم الجامعي، وكذلك ضمن المجتمعات المحلية والعالمية التي نعمل ضمن نطاقها»[4]. وقد انضمت تولين، وهي واحدة من عشر جامعات (صانعات للتغيير) في الولايات المتحدة، إلى هذا البرنامج. ويجمع هذا البرنامج بين أعضاء الهيئة التدريسية والقادة الطلابيين من عشر جامعات لتنفيذ مجموعة من البرامج، وقد اختيرت لورا لتكون ضمن الفريق الطلابي لإنجاز الشراكة بين جامعتيّ أشوكا وتولين، عندما أطلقت هذه الشراكة سنة 2009م.

وبحسب ما قالته لورا، فإن «برنامج المشروع الطلابي (الممول من جامعة أشوكا)، ومشروع جامعة أشوكا، مثَّلا أكثر التأثيرات أهمية في وصولي إلى ما أنا فيه اليوم»، وقد طلبت إليها أن تشرح كيف قدَّمت جامعة أشوكا يد المساعدة لها، وهاكم ما كتبته ردًّا على سؤالي:

«كانت هناك أولًا عملية التصويت على منحي الثقة التي ترجمت إلى اعتراف بقدرتي على إحداث تغيير من خلال استثمار المال في مشروع (اسبح من أجل أن تنجح)، وكذلك من خلال الإشراف عليَّ للعمل في هذا المشروع. ثم عيَّنوني سفيرة للمشروع الشبابي، وهو ما كان سببًا لمجيئي إلى واشنطن لحضور المؤتمر الأول لمشروع الشباب، وسمح لي بلقاء بعض أصحاب المشروعات الشبابية من دول العالم كافة.

كانت الشراكة مع جامعة أشوكا هي التي قادتني إلى فكرة تعليم الريادة الاجتماعية، التي تحولت فيما بعد إلى ضرب من ضروب الشغف بالنسبة إلي. حضرت المؤتمرين اللذين عُقِدا في جامعة أشوكا، وتعرفت من خلالهما أشخاصًا مذهلين في مجال تعليم الريادة الاجتماعية (من ضمنهم ألان ويب الذي بدأ مشروع (حلقات المواطنين) بالاشتراك معي)، وقدَّموا لي أيضًا شبكة من الدعم، وتسهيلات للاطلاع على أفضل ممارسات (دوائر المواطنين)، ولمتابعة البحث الذي أعمل عليه، وأي شيء آخر أفعله يتعلق بتعليم الريادة الاجتماعية.

أفضل ما في جامعة أشوكا هو الأشخاص الذين يصلونك بهم؛ فقد رُتِّب تواصل بيني وبين أشخاص مهمين جدًّا بوساطة الجامعة؛ على سبيل المثال التقيت بفرنسوا تادي؛ وهو زميل في جامعة أشوكا، ويدرِّس مقررات تتعلق بالابتكار والتعليم، وقد دعاني إلى بكين لحضورٍ مؤتمر آخر، ودعاني كذلك للانضمام إلى المجموعة التعليمية في أسبوع صانعي التغيير الذي أُقيمَ في باريس الشهر الماضي.

كانت الدعوة التي تلقيتها للسفر إلى باريس حدثًا مهمًّا بالنسبة إلي، تعرفت من جديد أشخاصًا مرموقين، وسنحت لي الفرصة لعرض الأفكار التي طلعت بها بالاشتراك مع ألان. لقد كانت المحاضرة التي ألقيتها مناسبة للتأسيس لتواصلٍ مع أشخاص جدد، من ضمنهم المدير التنفيذي من دولويت».

ما من شك في أن لورا استفادت أيما فائدة من الدعم القوي الذي تلقته من والديها، ولكنني أعتقد أن التشجيع الذي تلقته لورا من اثنين من النافذين في جامعة تولين، والمتمثل في الفرصة لأداء دور قيادي في جامعة تسعى إلى أن تكون مركزًا للإبداع الاجتماعي، والفرص التي سنحت لها للتعلم، والتي وفرتها لها في جامعة أشوكا، كان من بين العوامل الحاسمة في تطور لورا. لحسن الحظ، هناك أعداد متزايدة من الجامعات التي تطرح مقررات في مجال الريادة الاجتماعية، كما أن عدد المنظمات التي تقدم الدعم للإبداع الاجتماعي والريادة قد ازداد زيادة ملحوظة في العقد الماضي. وتؤدي هذه المنظمات، الصغيرة منها والكبيرة، دورًا مهمًّا وحاسمًا في دعم جيل الشباب الذين يتوقون إلى أن يصبحوا من صانعي التغيير من أمثال لورا. في القصص الآتية التي سنوردها، سوف نلقي نظرة على أنظمة قدمت الدعم لاثنين آخرَيْن من الرواد الاجتماعيين.

سيريتا غيتس

في ستينيات القرن العشرين كتب عالم النفس أبراهام ماسلو (Abraham Maslow) مقالًا مستفيضًا حول نظريته التي أطلق عليها اسم (هرمية الاحتياجات)، وفي قاعدة الهرم الذي أطلق عليه اسم (هرم الاحتياجات الإنسانية) توجد (احتياجات الأمان)؛ لتوفير الأمن والنظام والاستقرار. وهذه - مجتمعةً - تمثل الاحتياجات المادية من أجل البقاء، وفقط عندما تتوافر هذه الاحتياجات يبدأ الإنسان بالتفكير في احتياجاته النفسية، كما يقول ماسلو. وفقط

بعد أن يكون البشر قد لبوا احتياجاتهم من الحب والانتماء واحترام الذات، يصبح بإمكانهم الصعود إلى أن يصلوا إلى قمة الهرم: أي تحقيق الذات.

إذا صحت نظرية ماسلو، فإننا نتوقع أن نشاهد شبابًا من بيئة اقتصادية محرومة يهمهم كثيرًا موضوع صراعهم من أجل البقاء أكثر بكثير من اهتمامهم بإحداث فرق إيجابي في العالم من حولهم، ولكن، كما علمنا من قصة جامين، ومما سنراه من خلال قصة سيريتا غيتس، فإن الرغبة في إحداث فرق حقيقي في العالم ليس حكرًا على أبناء العائلات الميسورة، الذين يرغبون في أن يصبحوا مبدعين وروادًا اجتماعيين؛ وإن من بين أبناء الطبقات المحرومة أشخاصًا مثل جامين وسيريتا نشؤوا في عائلات تديرها أمٌّ وحيدة أو أب وحيد، كانت تكافح من أجل البقاء.

سيريتا هي امرأة أمريكية من أصول إفريقية، تبلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، ولدت في حي كوينز بمدينة نيويورك، وهي الابنة الوحيدة لأم أحيلت حديثًا إلى التقاعد، وكانت تعمل في مجال الخدمة الاجتماعية في المدينة. وفي سنة 2007م أسست سيريتا منظمة أطلقت عليها اسم (الحياة حلوة)، أو ما يعرف اختصارًا باسم (SWT)، وهذه المنظمة - استنادًا إلى ما ذكرته سيريتا - «تهتم برفع مستوى قدرات الشباب وتشذيبها، ودفعهم نحو طريق النجاح، وتوفر أيضًا الإشراف في مجال الريادة، والتدريب في مجال تنمية الشخصية، والتعرُّف إلى محترفين متخصصين في توجيه الجيل الشاب من أبناء الألفية الجديدة». تعمل سيريتا حاليًّا في برنامج الدراسات المتميزة، والمتعددة الاختصاصات المعرفية لإعداد حملة الشهادة الثانوية في جامعة نيويورك؛ وهو برنامج مخصص للطلاب الراغبين في تصميم التخصص الرئيس الذي يودون متابعة الدراسة فيه، والذي يضيف أيضًا إلى رصيد الطلاب عددًا من الساعات المعتمدة الإضافية في مجال الخبرة الحياتية. التخصص الرئيس لسيريتا هو (ثقافة الشباب القاطنين في المدن)، وتدرس مقررات ذات صلة بالدراسات المتعلقة بحياة المدن، وعلم الإنسان الاجتماعي، ومقدمة في ثقافة الهيب - هوب، ومقدمة حول النشر. وقد وضعت أيضًا ملفًّا يوثِّقُ تجربتها في مجال العمل الاجتماعي، وتلقت عليه رصيدًا بلغ خمس عشرة ساعة معتمدة[5]، وتشرف سيريتا أيضًا على تحرير مجموعة من المقالات بعنوان (Just Be Cause)، التي تُعدُّ دليلًا للريادة الاجتماعية لجيل الألفية الجديدة، ويسهم بالكتابة فيها أكثر من ثلاثين شخصًا، وهي تخطط لنشر هذه المقالات في كتاب بالتعاون مع شركة أمازون.

ذكرت لي بريندا غيتس، والدة سيريتا، أن هذه الأخيرة بدأت (تؤدي) دور الرائدة في المدرسة الابتدائية، قالت: «كنت أصحبها من المدرسة بعد انتهاء الدوام المدرسي عندما كانت في الصف الثاني الابتدائي، وبينما كنا في طريقنا إلى المغادرة، قال لها حارس المدرسة: «حسنٌ يا حلوتي لا تنسيني»، فالتفتُّ إلى ابنتي وقلت لها: «ما الذي يتحدث عنه؟!»، شرح هو الموقف بالقول إنه رآها وهي تبيع الفشار في المدرسة، فقد كانت تطلب أربعة دولارات لقاء كل علبة من الفشار التي كنت أشتريها من متجر كوستكو لقاء دولار واحد وثمانية وأربعين سنتًا.

بدأت بعد ذلك بيع شرائط توضع بين صفحات الكتب، وكنت أبيعها حيث كنت أعمل بمبلغ دولار واحد للشريطة، ثم علَّمتها خالتي صناعة المعجنات التي صرت أبيعها لها. وفي المرحلة الثانوية كانت تشتري رُقعًا قماشية وتخيطها على الثياب، ثم تبيعها للأولاد.

لكنها أيضًا كانت دائمًا تمد يد المساعدة للآخرين، وقد سألتني في أحد الأيام عن رجال رأتهم يجلسون على مقاعد خشبية ليلًا نهارًا، وسألتني عما يمكنها أن تفعله لمساعدتهم، فشرحت لها أن بعض الناس يواجهون كثيرًا من المعوقات، لكن عليكِ معاملتهم بلبقة واحترام، كما أن عليك أن تعملي جاهدة لتحقيق أحلامك، وربما أصبحتِ يومًا ما مثالًا يحتذى، إذ لا يمكنك أن تقضي حياتك غارقة في أحلام اليقظة... وبعدها حازت تعبير استحسان حقيقية في المدرسة الثانوية عندما عملت في مطعم شعبي للفقراء».

قالت لي سيريتا: «لقد كان مطعم الفقراء ذاك تجربة جيدة بالنسبة إلي؛ فقد كنت أستمتع بالحديث إلى الناس هناك، فقد التقيت بكثير من المشردين، وأيضًا بعمال كانوا بحاجة إلى تناول وجبة غذائية. كان أفضل الجوانب في تلك التجربة في مطعم الفقراء ذاك، هو العمل التطوعي الذي اضطلعت به بالتعاون مع زملائي. فقد تبيَّن لي من خلال تلك التجربة أن الخدمة يمكن أن تكون عملًا ممتعًا، ولا تثير الإحساس بالملل».

كانت تلك التجربة بمنزلة الشرارة الأولى التي أوقدت الحماسة في قلب سيريتا، لكن رحلتها التي بدأتها في المرحلة الثانوية وصولًا إلى ما هي عليه الآن لم تكن سهلة أبدًا.

«كنت عضوًا في نادي الساعة الثانية والنصف؛ أي إنني كنت أخرج في تلك الساعة، وكنت على وشك الإخفاق؛ فالمقررات الوحيدة التي استمتعت بدراستها في المرحلة الثانوية كانت إدارة الأعمال، والرياضيات المرتبطة بتخصص إدارة الأعمال والاتصالات.

أنهيت المرحلة الثانوية سنة 2005م، والتحقت مباشرة بالجامعة التكنولوجية في نيويورك؛ ولكن بعد مرور سنة على ذلك تركت الجامعة، أو بالأحرى فُصِلتُ من الجامعة؛ لأنني رسبت أكثر من مرة في اختبار الرياضيات».

التطوع طريقًا للهدف

وقالت لي بريندا: «حاولت - بصفتي والدتها - منحَها كامل الحرية لتكتشف بنفسها الاتجاه الذي ستقودها إليه حماستها، والوقت اللازم لاستقصاء ذلك الهدف. وكانت قد اكتشفتْ أن معهد المدينة للتكنولوجيا لا يشبه المدرسة الثانوية بشيء، فأتت إليَّ بعد انتهاء السنة الأولى وقالت لي: «لست جاهزة». أجبتها: «حسنٌ، ولكنَّ عليك أن تفعلي شيئًا»، وهنا بدأت العمل التطوعي».

تابعت سيريتا سرد قصتها:

«شعرت أن حياتي بدأت فعلًا عندما توجهت نحو العمل التطوعي. عملت بدايةً لحساب منظمة تدعى (ثورة الفريق) (Team Revolution)، ثم انتقلت بعد ذلك للعمل في برنامج الحلفاء المتحدون (Public Allies) - وهو برنامج الفيلق الأمريكي - لمدة سنة. في البداية كنت أعمل بصفة ضابط ارتباط بين أولياء الأمور لمصلحة مشروع التواصل مع الشباب، الذي كان برنامجًا يهدف إلى نشر الوعي حول مرض نقص المناعة المكتسب (AIDS)، ولكنني لم أكن أحب الموقع الذي كنت فيه؛ ولذا فقد بدأت العمل في برنامج ذي صلة بالمراهقين، وأحببت هذا النوع من العمل. كان مشروعي الأول هو العمل مع مجموعة من الفتيات الشابات، اللواتي كنَّ فتيات في المرحلة المتوسطة، وكنا نحاول تقديم المساعدة والإرشاد لهن في عملية انتقالهن إلى المرحلة الثانوية.

أما المشروع الثاني الذي قُدْتُهُ فكان برنامجًا جداريًّا حول نشر الوعي الاحترازي ضد مرض الإيدز. كان منسق البرنامج دانييل سيلبر - بيكر شخصًا عظيمًا بحق؛ فقد دربني، وأطلق يدي في عملية تصميم البرنامج بنفسي».

عندما طلبت إلى سيريتا أن تسمي بعض المدرسين الذين قدموا لها المساعدة، قالت إنه لم يكن يساعدها أحد من المدرسين، لكنها ذكرت أن عددًا من الناس من خارج المدرسة دربوها وأشرفوا عليها بطرائق إيجابية جدًّا، وكان دانييل سيلبر - بيكر أحد هؤلاء.

المشرفون على سيريتا

كان دانييل يحمل شهادة بكالوريوس في الدراسات الأمريكية من جامعة كاليفورنيا في سانتا كروز، وبدأ العمل مع المجموعات الشبابية منذ أن كان في الصف الثامن، وقد قال لي: «توقفت عن متابعة الدراسة مدة وجيزة؛ ولذا فقد ألحقني والدايَ ببرنامج تدريبي استشاري في رابطة الشباب المسيحي، وقد أحببت جدًّا العمل في هذا البرنامج منذ البداية». الآن، وبعد أن بلغ سن السابعة والعشرين، يعمل دانييل مديرًا لقسم التربية الصحية للمراهقين في مشروع التواصل مع الشباب؛ وهو برنامج يموله مشفى في حي بروكلين في نيويورك، يسمى المركز اللوثري للرعاية الصحية. يدير دانييل سلسلة من البرامج التي تهدف إلى إنتاج ثقافة شبابية أكثر أمانًا وأكثر صحة، وقد بدأ العمل مع سيريتا منذ ثلاث سنين.

«عليَّ أن أحيطَ بالرعاية الكاملة كل من يعمل مع شبابنا، لكنني رأيت بسرعة كم كانت بارعة في التعامل مع المراهقين، وعندما انتهت مدة تدريبها في برنامج الحلفاء المتحدين؛ طرحتُ وظائف جديدة كي أُبقيها ضمن فريقنا، وما تزال حتى الآن منخرطة في برنامجنا، وقد ألقت الكلمة الافتتاحية في حفل التخرج لبرنامجنا (مشروع أمان) (Project SAFE) منذ عدة أشهر (وهو برنامج يعمل على تدريب الشباب بين سن الرابعة عشرة والتاسعة عشرة على تقديم معلومات حول إنقاذ حياة الآخرين من خلال ورش العمل والأداء المسرحي والتواصل مع المجتمع)»[6].

طلبت إلى دانييل أن يصف لي بعض الأساليب التي حاول من خلالها تقديم الدعم لسيريتا.

«ساعدتُها بدايةً على إيجاد فسحة لتحقيق أحلامها، فعندما بدأت العمل معنا للمرة الأولى جاءت إليَّ وقالت: «أرغب في إقامة لوحة جدارية لنشر الوعي حول مرض الإيدز بالاشتراك مع الأولاد». ظن آخرون ممن يعملون معي على ذلك المشروع أن تلك ستكون مجرد رسومات أو كتابات على الجدران؛ ولذا فلم تكن لديهم نية في دعم المشروع، ولكنني أخبرتها أنني سوف

أتحمل المسؤولية البيروقراطية، وهكذا فقد نظمتُ مجموعة من الأولاد تراوح أعمارهم بين 14 و17 سنة، وأمضى هؤلاء أربعة أسابيع وهم يتدربون بإشراف فنان غرافيتي، ثم رسموا بعد ذلك لوحة جدارية على جدار أحد المخازن. وكان واضحًا أن تلك الرسومات حازت إعجاب السكان؛ لأن أحدًا لم يرسم أي لوحة غرافيتي فوق تلك اللوحات.

«في السنة الفائتة أو نحو ذلك، حاولتُ دعم قرارها بالعودة إلى الجامعة، وساعدتُها على تصميم الدراسة المستقلة لتخصصها الرئيس، وفي اختيار المحاضرات الدراسية المناسبة. وعملنا أيضًا في عدد من المشروعات معًا؛ وكان أحد هذه المشروعات اليوم العالمي لمكافحة الإيدز، وكانت فكرتها تدور حول تحويل هذا المشروع إلى حملة، وليس مجرد حدث ليوم واحد. وهكذا فبدلًا من شعار (مفعمٌ بالنشاط حتى الموت) (وهو شعار دارج يوحي بأجواء جيدة وإيجابية،) فقد خرجت بشعار آخر هو (مفعم بالنشاط من أجل الحياة)، ونظَّمت حملة استخدم فيها الأولاد الفيسبوك والتويتر لإضافة لائحة بما يمكن أن تفعله يوميًّا كي تبقى بأمان وتحمي نفسك، وقد لاقت هذه الحملة استجابة هائلة.

«نظمت في الربيع الماضي مؤتمرًا يهدف إلى عقد صفقة تشاركية بين أولادٍ من حي بروكلين، وبين أشخاص في المجتمع، وكنت أنا أحد من جنَّدتهم بصفة مدرب».

كانت إيريكا فورد المشرفة المهمة الأخرى على سيريتا التي قالت: «عندما بدأت العمل على فريق الثورة منذ ثلاث سنوات، سألتني إيريكا عن ماهية الفرّق الذي أود أن أحدثه في العالم، وما الإرث الذي أرغب في أن أخلفه للأجيال القادمة».

إيريكا هي مديرة معسكر الحياة (LIFECamp, Love Ignites Freedom Through Education)، (الحب يشعل شرارة الحرية من خلال التعليم)، وهو منظمة غير ربحية، مهمتها - كما قالت إيريكا - «مساعدة الشباب على أن يصبحوا روَّادًا في عالمَيْ الموسيقى والأزياء، بدلًا عن حياة العصابات». نستطيع أن نتصور كيف يمكن أن ينشأ المرء في جنوبي جامايكا أو في حي كوينز في ذروة انتشار وباء المخدرات الذي اكتسح المنطقة في ثمانينات القرن العشرين، وقد شاهدت إيريكا شبانًا من حولها يُقتَلون أو يرمَون في السجون، فقررتْ أن تعمل مع الجيل الشاب من أجل مساعدتهم على إيجاد بدائل يمكن أن يقفوا حياتهم لها.

تعرف إيريكا حق المعرفة أهمية دفع الشباب باتجاه ترجمة حماستهم إلى هدف؛ وهي تفهم أيضًا أهمية تعليم شباب المدن دفع أنفسهم إلى الأمام.

قالت إيريكا: «لقد روِّضوا بحيث لا يقدرون على التفكير، أو أن ينظروا إلى ما هو أبعد من أنوفهم، وأن يقنعوا بالمنطقة الرمادية التي حُشِروا فيها. إنهم موهوبون وأذكياء، لكنهم كسالى، والناس تتقبل وجود مثل هذه النماذج في المجتمع. كانت سيريتا تخرج علينا بعبارات طنانة، مثل قولها إنها تعرف أشياء وأشياء؛ لكنني قلت لها (أنا سوف أضغط عليك)، أنا أفعل مثل هذه الأشياء مع كل الأولاد. أنت تقولين إنك تجيدين لعب الكرة؛ ولذا فأنا سوف أرمي لك بكرة، وتقولين إنك تجيدين الراب، وأنا أقول إنني سأعطيك ميكروفونًا؛ وتقولين إنك تجيدين تصميم الأزياء؛ ولذا فسأجد لك آلة خياطة. تابعتُ الضغط عليها، وفي الشهر الماضي دفعتها باتجاه الذهاب إلى إحدى الدور التي يقيم فيها الأولاد في منطقة البرونكس والتحدث إليهم عما تقوم به وكيفية الحصول على منحة دراسية.

إذا أردت العمل مع أبناء المدن فعليك الاستحواذ على طرائق تفكيرهم. علينا تعليمهم أن وضعهم الاقتصادي لا يمكن أن يحدد مصيرهم؛ وعليهم أن يفهموا أنَّ العظَمَة موجودة في دواخلهم، وأنك لو كنت صادقًا مع مفهوم هذه العظمة لوجدتَ أن بإمكانك القفز من فوق الحواجز».

أهمية الشغف والهدف في حياة سيريتا

بحسب موقع إلكتروني أنشأته سيريتا سنة 2011م فإن مؤتمر الشباب بعنوان (أحاديث حول منظمة (الحياة حلوة) ؛ هو برنامج تجريبي يقدم لثلاثين من المراهقين في مدينة نيويورك (بين سن الرابعة عشرة والسابعة عشرة) شرحًا واضحًا للطريقة التي يستخدمون فيها حماستهم وطاقاتهم ورؤاهم للهدف من أجل بلوغ النجاح في المدرسة وفي الحياة عمومًا، بدءًا من الآن. ففي اللقاءات التي حصلت بين هؤلاء المراهقين وبين المدربين على أعمال الإنقاذ والمتخصصين في علم الفلك كلًّا على حدة، ومن خلال ورش العمل التي شارك فيها قادة الألفية الجديدة في مختلف الشركات الصناعية، كان على هؤلاء المراهقين على مدى ثلاثين يومًا، مواجهة صعوبات صممت كي توسع من مخيلاتهم ومهاراتهم وثقتهم بأنفسهم»[7].

وعندما سألت سيريتا عن السبب الذي دعاها إلى الاعتقاد بأن (الحماسة والطاقات والهدف) لها تلك الأهمية، أجابت: «في المرحلة الثانوية يحثّونك على بذل جهد أكبر في المجالات التي يكون أداؤك فيها سيئًا، أما بالنسبة إلي فإن من المهم أكثر التركيز على ما أجيد فعله من أجل اكتشاف حماستي تجاهه، فما كان بإمكاني العودة إلى الجامعة قبل أن أعرف ميولي الحقيقية. هذه الميول قابلة للتغيير عندما تكبر وتتطور، ولكن عندما تكتشف ميولك الحقيقية، وتتحرك واضعًا هدفًا نصب عينيك، فإن كل ما تفعله يصبح ذا معنى».

بريندا غيتس بدورها تحدثت عن أهمية اكتشاف سيريتا لميولها الحقيقية، فقالت: «إن ما تفعله يترافق مع كثير من الحماسة، إنها تمتلك البراعة والثقة المهارات التي تترك أثرًا حقيقيًّا في نفوس الشباب. آمل وأحلم في أن تبقى متحمسة لأي شيء تفعله».

سألتها: «لماذا تعتقدين أن الحماسة مهمة لهذه الدرجة؟».

أجابت: «عندما تكون سيريتا متحمسة حقًّا لفعل أي شيء، وعندما يكون مثل هذا الفعل ممتعًا بالنسبة إليها، فإنها تمنح هذا الشيء 110% من جهدها ووقتها، وتنجزه مهما كلَّف الأمر. عندما تكون ممتلئةً حماسةً فإنها سوف تنجح فيما تفعله، وهذا لا يعني بالضرورة أن ذلك يعود إلى أنها ستجني من ورائه كثيرًا من المال، بل لأنها ستكون سعيدة بما أنجزته. هناك كثيرون يجّنون كمًّا هائلًا من المال، لكن ذلك لا يعني السعادة مطلقًا، فليس المال هو ما يحقق السعادة في الحياة».

تؤمن سيريتا بأن على الشباب أن يستوعبوا كيف يمكن أن تصوغَ ثقافة الشباب قيمهم ومعتقداتهم وسلوكهم، فالأولاد المحرومون لا يوجهون إلى أن عليهم الاقتناع بالقليل الذي يحصلون عليه وحسب، بل تطغى عليهم القناعة بأن من المناسب التصرف على هذا الأساس. وتُغرَسُ في أذهانهم فكرة أنه ليس من المستحسن أن يتابعوا دراستهم أو يأخذوا المدرسة على محمل الجد؛ وأن من الأفضل لهم ترك المدرسة والتسكع في الشوارع والطرقات. ويبدو الأمر كما لو أن عديدًا من الشبان الذين يترعرعون في ظل أوضاع مادية صعبة يودون الاعتقاد أن الصفقة الغثَّة التي يعرضها المجتمع عليهم هي ما اختاروه هم، ورغبوا فيه بكامل حريَّتهم. مدارسهم في حالٍ مريعة؛ ولذا فإن من الأفضل لهم ألَّا يذهبوا إليها أساسًا، وألا يهتموا لذلك، البتة.

قال لي دانييل: «إنها تفهم قوة المعنى الذي تتضمنه كلمة (ممتاز) أكثر من أي شخص آخر قابلته في حياتي، إنها القوة المحركة في ثقافة الشباب وبالنتيجة، فهي بمنزلة المفتاح لفهم الطريقة التي بوساطتها نستطيع جذب هذا الجيل الشاب ونشعره بالانتماء. تعرف سيريتا كيف تؤثر الثقافة فيها، وكيف تستطيع هي أن تؤثر في الثقافة». وقد تحدث بالتفصيل عن هذه الموهبة التي تتمتع بها سيريتا في رسالة أرسلها لي بالبريد الإلكتروني مؤخرًا:

«من خلال تَتبُّعِ رؤية سيريتا، وفهمها للكيفية التي تُقوْلِب فيها كلمةُ (ممتاز) حياة الشباب وقراراتهم وتطغى عليها، يتبين لنا أن مشروع (الحياة حلوة) (وهو منظمة غير ربحية أسستها سيريتا) هو بمنزلة محرك ومظلة، وهو القوة الدافعة التي تجمع بين وجهاء المجتمع وبين المنظمات المختلفة من أجل طرح برامج، وعقد مؤتمرات، وإقامة مشروعات جدارية، وأنشطة في مجال خدمة المجتمع، تهدف كلها إلى إعطاء قوة دفع للشباب من أجل إحداث تغيير إيجابي في مجتمعاتهم؛ وفِعل كل ذلك بالتزامن مع رسم هيكلية لمفهوم كلمة (ممتاز). إن طريقة سيريتا تتميز بالخيال الجامح والواقعية العميقة؛ فهي تجد قاعدتها الحقيقية في أكثر متطلبات مجتمعنا المادية إلحاحًا وواقعية، وفي الأحلام الأكثر جمالاً وإبداعًا عند الناس في تلك المجتمعات. تحيط سيريتا نفسها بالأشخاص الأكثر تهميشًا، والأكثر صمتًا، ممن يحملون على كواهلهم أثقل أنواع الأعباء، وتستلُّ منهم أكثر الحركات تأثيرًا لمصلحة التغيير الاجتماعي الذي تنشده».

في حديث جرى بيننا فيما بعد، قال دانييل: «معظم الناس لديهم الانطباع بأن مخيلة المرء لها حدود، ولكن سيريتا ترفض هذا المنطق، فهي تؤمن حقًّا أن الطريقة التي تتخيل بوساطتها العالم هي الطريقة التي يجب أن يكون عليها، ولديها القدرة على تخيُّل عالَمٍ ممتازٍ أكثر عدالة وأكثر حرية».

حصلت سيريتا حديثًا على بعض الاعتراف والتقدير لمواهبها والإنجازات التي حققتها، وقد كرمتها مجلة (غلامر) (Glamour) بصفتها واحدة من بين عشرين امرأة شابة ممن حققن إنجازات مذهلة تحت سن الخامسة والعشرين في حفل توزيع الجوائز بإشراف المجلة المذكورة سنة 2010م. وكذلك سُمِّيَت (زميلة في مجموعة الانطلاق) وهو ما أهَّلها لحضور مؤتمر أقيم في معهد تابع لهذه المجموعة يعنى بالإبداع الاجتماعي[8]، وقد شرحت سيريتا السبب وراء انضمامها إلى هذا البرنامج بالقول: «حضرت ورشة عمل حول المساعدة على

وضع خطة عمل في حقل إدارة الأعمال في حي هارلم، التي مولت عقدَها مجموعةُ الانطلاق ومنظمة غولدمان»، وشرحت لي سيريتا كيف انضمت إلى ذلك البرنامج بالقول: «تحدثت بدايةً مع هذه المرأة، واسمها مارغريت مور، كنت أقرأ كتاب مالكولم غلادويل : نقطة المَيْل (The Tipping Point) ، وبدأت بإحاطتها علمًا بما كنت تفعله، ثم اكتشفت لاحقًا أنها زميلة في مجموعة الانطلاق، وأنها تعمل في منظمة غودمان، وقد قدمت لي يد المساعدة في التقدم بطلب الالتحاق بالمنظمة، ودفعت قيمة قسط الاستمارة، ومن ثم فأنا مدينة حقًّا لهذه المرأة للفرصة التي منحتني إياها لأكون ضمن ذلك البرنامج. كان ضمن ذلك البرنامج أشخاص من قطاعات غير ربحية وتشاركية، وحكومية، ومشروعات اجتماعية، وكانت تلك الشبكة من المهنيين الشباب مذهلةً».

هذا لا يعني بالضرورة أن سيريتا لديها كثير من أوقات الفراغ على الإطلاق؛ ففي حين تأمل في الانتهاء من دراستها في الجامعة بعد سنة ونصف، فقد أخبرتني أنها تعاني صعوبة في دفع تكاليف الدراسة، وأنها لا تعلم كيف ستستطيع دفع الأقساط المستحَقَّة الآتية، وكانت تعيش في منزل ذويها كي توفر بعض المال. وقد كان دانييل، الذي يساعدها في دراستها، قلقًا من احتمال أن ينفد صبرها من كثرة الاستئمارات التي كان عليها تعبئتها من أجل الحصول على مساعدة مالية، واستئمارات أخرى ذات طابع بيروقراطي تخص الجامعة. «من السهل عليها القول «ما الداعي إلى كل هذا»، لكنني أعتقد أن المهم بالنسبة إليها هو أن تنهي ما بدأت به».

بعض أوجه الشبه وأوجه الاختلاف المهمة

أوجه الشبه بين قصتيّ لورا وسيريتا مدهشةً؛ فكلتا الفتاتين استفادتا إلى حد كبير من تشجيع الوالدين لهما في سعيهما إلى تحقيق أحلامهما من أجل إحداث فرق في العالم، واكتشفتا أن المدرسة الثانوية لم تكن مصدر إلهام لهما، أما شعورهما تجاه تجربتهما الجامعية فقد كان مختلطًا. وفي حين أن كلتا المرأتيْن قامتا بتصميم مقررات كانت مثار اهتمام لهما من خلال البرامج الدراسية المتعددة التخصصات، لكن شغفهما الأكبر تمثل فيما كانتا تقومان به خارج نطاق الصفوف الدراسية، وكانت أهدافهما واحدة: منح الناس القوة والدعم، وإعطاؤهم الأدوات المناسبة التي يحتاجونها من أجل التغيير.

في حياة كل من هاتين المرأتيّن كان الدعم الذي تلقّتاه من المنظمات غير الربحية التي تعمل لمصلحة الرواد الاجتماعيين الشباب حاسمًا فيما وصلتا إليه، وأخيرًا كان اللعب والشغف والهدف في المستوى نفسه من الأهمية من حيث كون هذه العوامل مجتمعةً، تمثل حوافز بالنسبة إلى لورا وسيريتا. قالت لي سيريتا: «عندما تعرف اتجاه بوصلة حماستك، تستطيع وضعَ الهدف نصب عينيك».

لا تهدف هذه المقارنة إلى التعامي عن الاختلافات الجوهرية في حياة كل منهما، فترعرُعُ سيريتا في عائلة لا تكاد تستطيع تأمين قوت يومها، جعلها تشعر أن عليها أن تكافح بطرائق لم يكن على لورا سلوكها. وفي حين أنها لم تتحدث عن ذلك، فإن دانييل وإيريكا ـ على ما أظن ـ لم يكونا مجرد مشرفيّن فكرييّن على سيريتا؛ لقد كانا بالنسبة إليها مثلًا أعلى. كان كلاهما يفعلان ما كانت سيريتا تتصور أنها ستفعله يومًا ما في المستقبل، وهما يساعدانها على تطوير الانضباط والمثابرة اللذين تحتاج إليهما كي تنجح.

إن دور الحماسة والهدف في حياة هاتيّن المرأتيّن يختلف أيضًا عند إحداهما عن الأخرى، على ما أعتقد؛ فبالنسبة إلى كثيرين من أبناء الطبقة الوسطى الشباب الذين يترعرعون في المجتمع ما بعد الصناعي، فإن اكتشاف ما يثير حماستهم يعطي لحياتهم معنى أعمق، وامتلاكهم لحس الهدف يقودهم إلى العمل بجهد أكبر مما كان يمكن أن يبذلوه، وسوف يؤدي بهم إلى إنتاج مبدعين مهمين، وفي الوقت الذي يصح ذلك على شباب المدينة فإن للحماسة والهدف دورًا أكثر أهمية في حياتهم. إن اكتشافهم للجانب الحماسي في شخصياتهم يساعدهم على العثور على بديل عن حياة الطرقات والشوارع، ويصبح داعمًا مهمًّا لصراعهم من أجل البقاء، فقط من خلال اكتشاف ما يريدونه ويحتاجون أن يقولوا له (نعم). يمكن أن تكون لدى شباب المدينة القدرة على أن يقولوا (كلا) لكثير من الأشياء التي تشدهم إليها، وتهدد بتدميرهم في بيئتهم، وفي هذا الصدد يمكن أن نستعير عبارة سيريتا التي تقول إن كلمة (ممتاز) التي تعني (مفعم بالنشاط حتى الموت)، يجب أن تتحول إلى (مفعم بالنشاط من أجل الحياة).

من دون أي سبب ـ وفي ظل غياب الحماسة والهدف ـ لا يستطيع كثير من الشباب الذين يعانون الفقر المدقع تحمل الإحساس العارم بالملل في المدرسة؛ هكذا، وبكل بساطة؛ فالحماسة

والهدف هما ما يمنحانهم الأمل والقدرة على التركيز الواضح، والدافع لتمكينهم من المهارات والمعرفة التي يحتاجون إليها من أجل النجاح.

ولكن الفئات المحرومة في أنظمتنا التربوية لا تقتصر على أبناء الأقليات فقط، فالطلاب الذين يتلقون علومهم بصورة مختلفة يُعدُّون أيضًا محرومين من منظورات أخرى، كما سوف نرى ذلك من خلال قصة زاندر.

زاندر سرودس

نال زاندر سرودس، البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة، اعترافًا عالميًّا بموهبته التي تجلت فيما قدمه لسلاحف البحرية المهددة بالانقراض، إذ ألقى محاضرات في المئات من المدارس الابتدائية في الولايات المتحدة، وكذلك في عديد من دول العالم؛ ودعي إلى إلقاء محاضرات في مؤتمرات تعنى بشؤون الحفاظ على البيئة في الهند واليابان. وألَّفَ - وهو في سن الرابعة عشرة - كتاب نشاط مكونًا من إحدى وعشرين صفحة لطلاب المرحلة الابتدائية أطلق عليه عنوان: (السلحفاة تتكلم)، وقد أرفق الكتاب برسومات لليندا سودركويست، وهي معلمة لطلاب المرحلة الابتدائية، إضافة إلى كونها فنانة أيضًا. طلب في مرحلة لاحقة إلى بعض طلاب المرحلة الثانوية ترجمة الكتاب إلى اللغتين الإسبانية والفرنسية، وفي مرحلة لاحقة تُرجم إلى ثلاث لغات أخرى، وقد وزعت حتى الآن أكثر من 250 ألف نسخة من هذا الكتاب من دون مقابل في عشرين دولة.

يعمل زاندر حاليًّا في محطة للبحث وإنقاذ السلاحف البحرية، التي أُسست حديثًا في قرية صغيرة تدعى (لا بارونا)، وتقع في أقصى الزاوية الجنوبية لغواتيمالا على المحيط الهادي. المجموعة الصغيرة التي انضم إليها زاندر تُعدُّ رائدة في طريقة جديدة تتضمن العمل مع صيادين ممن ليست لديهم رخصة للصيد، وتوضح هذه المجموعة لهؤلاء الصيادين أهمية إحضار 15% من البيض الذي يجدونه إلى المحطة لينقذوه من التلف. طلب فريق أكازول من زاندر الانضمام إليهم بسبب خبرته واهتمامه بتوعية الناس حول السلاحف البحرية. وهكذا، فبالإضافة إلى الواجبات الثقيلة الملقاة على كاهل المحطة، المتمثلة في عمليات الإنقاذ والبحث في أوضاع مادية صعبة، فإن هذه المحطة ترشد الأطفال إلى الأسباب التي تجعل من إنقاذ السلاحف عملًا جيدًا لهم، خصوصًا بالنسبة إلى اقتصادهم وبيئتهم.

بهذا الأسلوب يشرح زاندر الحافز غير المتوقع لعمله، في محاضرة ألقاها أخيرًا في مؤتمر للمراهقين في نيويورك بُثَّت على موقع TEDx[9].

«بدأ كل شيء سنة 2011م، وكنت حينها في الحادية عشرة من العمر، وكنت على الشاطئ ليلًا أطلق الألعاب النارية كي أثير إعجاب زملائي، وفجأة خرجت سيدة عجوز وبدأت بالصراخ عليَّ قائلةً إن الأضواء التي نشعلها تعمي أبصار السلاحف البحرية، ومن ثم فلن يكون بمقدورها معرفة طريق العودة إلى الماء. ونظرًا إلى أنني كنت برفقة أصدقائي، وكان معنا أيضًا غلام في الحادية عشرة، قلت لها: «اغربي عن وجوهنا أيتها العجوز».

أستيقظُ صباح اليوم الثاني لأجدها في منزلي وهي تتحدث إلى والدتي؛ فأعرف أنني وقعت في ورطة، وأظهرُ في الغرفة بعد مغادرتها الغرفة، فتقول لي والدتي: «عليك أن تذهب إليها وتتحدث معها. فهي المسؤولة الحكومية عن حماية السلاحف البحرية في هذا الجزء من الشاطئ». فأقول لنفسي: «عظيم! يبدو أنها شخصية مهمة؛ ولذا فأنا في ورطة حقيقية».

وهكذا، أتوجه إلى منزلها، متوقعًا أن أُقَطَّعَ إرَبًا إربًا من قبل هذه العجوز الخمسينية التي سوف تبدأ بتقريعي بسبب الأفعال الفظيعة التي تصرفتها. وتقودني إلى داخل منزلها، وتبدأ بشرح طويل عن السلاحف البحرية، ولكنها لا تصرخ في وجهي، بل تكتفي بمحاضرة تلقيها عليَّ حول هذه الحيوانات المهددة بالانقراض. وتبين لي أن ما فعلته على الشاطئ من إشعال للألعاب النارية مثَّل تهديدًا لمخلوقات بدأت تدبُّ على الأرض منذ خمسة وستين مليون سنة، وتُعدُّ جزءًا لا يتجزأ من النظام المرجاني الذي تعيش فيه. أنا لا أعرف ما الذي حدث، ولم أكن أهتم لأي شيء قبل تلك الحادثة، وفجأة وجدتُني أسألها: «ما الذي يمكنني أن أفعله من أجل حماية هذه السلاحف البحرية؟»، فردَّت بالقول: «ليس هناك كثير من الشباب الذين يفعلون أي شيء لحماية السلاحف البحرية»، وبعد ذلك اليوم لم يمر عليَّ يومٌ من دون أن أفكر في هذه الحيوانات».

تَطَوُّرُ أحد حماة البيئة الشباب

قص عليَّ زاندر بقية حكايته في حديث جرى بيننا، فقال: «خرجت أنا وليندا بفكرة إقامة عروض تقديمية لطلاب المدارس. ومن ناحيتي قرأت عن برنامج منح للأولاد، وكتبت اقتراحًا

بمساعدة من ليندا ووالدتي، تلقيت بموجبه ألفًا ومئتي دولار من مؤسسة البندقية (Venice Foundation) (أصبح اسمها الآن مؤسسة مجتمع شاطئ الخليج)، وتلقيت أيضًا جهاز حاسوب ممول من أجل إقامة عروض تقديمية بوساطة باور بوينت، واستعرت جهاز عرض من مكتب والدي. وقد عوَّدت الأطفال على وضع صورة تشريحية للسلحفاة البحرية، وصنعت حوض رمل يشبه الموضع الذي تستخدمه السلحفاة البحرية حيث يستطيع الأطفال استخدامه من أجل طمر بيوض تشبه بيوض السلحفاة فيه، وصنَّعتُ كذلك نموذجًا لسلحفاة بحرية مكتملة النمو.

بمساعدةٍ من ليندا، بدأت بزيارات للمدرسين، والانتقال من مدرسة إلى أخرى قرب منزلي في فلوريدا، وفي بداية هذا المشروع لم يكن يخطر ببالي مطلقًا أن المدرسين يرغبون في دعوتي إلى صفوفهم للتحدث إلى تلامذتهم؛ لأنني لم أكن أفضل الطلاب، ولم أكن الطالب المفضل بالنسبة إلى أي مدرس، لكن المدرسين أحبوا حقًّا عروضي التقديمية، وأحبوا فكرة أن يحضر إلى صفوفهم الدراسية ولدٌ في سن الحادية عشرة ويتحدث إلى تلامذتهم، وأظن أن ذلك كان له وقع حسن عند التلاميذ؛ لأنني كنت في مثل سنهم وأتحدث إليهم بلغة يستوعبونها.

بعد أن تابعت عروضي التقديمية تلك ثلاث سنوات ـ وكنت أقدم مزيدًا منها كل سنة ـ بدأت مع ليندا بالحديث عن طريقة يمكننا أن نتواصل من خلالها مع طلاب لا نستطيع السفر إلى حيث هم للتحدث إليهم؛ ومن هنا أتت فكرة طباعة كتاب (السلحفاة تتكلم)، الذي وضعته في صيف سنة 2004م. رسمت ليندا اللوحات، ودققت أنا كل المعلومات المطلوبة حول السلاحف البحرية، وبدأت بكتابة الإهداءات. وقد بلغت أعداد نسخ الطبعة الأولى 5000 نسخة، وبدأنا بإرسال نسخ منه إلى مدارس في فلوريدا ثم إلى جورجيا وكارولينا الشمالية حيث توجد على شواطئها أعداد كبيرة من السلاحف البحرية.

لكن السلاحف البحرية تواجه خطر الانقراض في منطقة البحر الكاريبي، ومن ثم فقد بدأنا بإرسال أعداد من الكتاب إلى ترينيداد وجزر البهاما. وبعد ذلك تعاونت مع النادي الإسباني في مدرستي الثانوية لترجمة الكتاب إلى اللغة الإسبانية، وبدأت أتلقى هبات مالية لتغطية نفقات السفر أيضًا، فسافرت إلى ترينيداد لإلقاء محاضرات في المدارس، وأسسنا لبرامج زمالة وتوءمة بين مدارس في الولايات المتحدة ونظيراتها في كل من كوستاريكا والبهاما

وبنما. وقد دُعيت هذه السنة لإلقاء محاضرة في ندوة عالمية عن السلاحف البحرية في الهند، وبناء على ذلك تُرجم الكتاب إلى لغتين محليتين في الهند.

من ناحيتي، أتابع محاولة جمع مزيد من التبرعات لإنتاج مزيد من الكتب حول هذا الموضوع وترجمتها إلى لغات أجنبية أكثر».

«كم بلغ مجموع الأموال التي استطعتم جمعها لهذا المشروع حتى الآن؟».

«قرابة 250.000 دولار».

لم يذكر زاندر شيئًا عن الجوائز التي تلقاها مكافأة له على الأعمال التي أنجزها، ومن ذلك جائزة اتحاد الشباب في فلوريدا للمحافظة على الحياة البرية، وجائزة براور للشباب منحها إياها معهد جزيرة الأرض سنة 2005م، وجوائز روح المجتمع الحصيفة البيئية الرئاسية الخاصة بالشباب سنة 2007م، وجائزة فولفو سنة 2008م.

تبرع زاندر بمبلغ 25.000 دولار، وهي قيمة الجائزة الأخيرة التي تلقاها، لمختبر فلوريدا التفاعلي البحري، الذي ساعده العلماء العاملون فيه على البحوث والمواد التي كان بحاجة إليها في عروضه التقديمية. ولم يخبرني أن صورته مرفقة بسيرة مختصرة عنه طبعت على 25 مليون حقيبة من ماركة دوريتوس تشيبس (Doritos Chips) بصفتها جزءًا من جائزة بعنوان (افعلوا شيئًا مفيدًا) سنة 2008م. اطلعت على كل هذه المعلومات من خلال المقالات العديدة التي كتبت عنه.

سألت زاندر: «وماذا بعد؟».

«ألفت كتابَيّ نشاط؛ أحدهما تناول سلحفاة الغوفر الأمريكية، والثاني كان حول سلاحف المياه العذبة. وعززت بسبب هذا المشروع كثيرًا من الاتصالات والتعاون مع الناس المهتمين بحماية السلاحف البحرية، وأنا الآن أعمل مدرسًا متدربًا في (منظمة حماية السلاحف البحرية)، وهي أقدم منظمة حماية للسلاحف البحرية في العالم. وأعمل كذلك متدربًا لمصلحة مجموعة تدعى (السلاحف البحرية). هذه الجماعة تعمل في مجال السياحة البيئية، وتأخذ الأطفال في رحلات من الولايات المتحدة إلى كوستاريكا والمكسيك وترينيداد للعمل التطوعي

في مواقع الأعشاش التي تبنيها السلاحف البحرية من أجل التكاثر. قدتُ رحلة الصيف الماضي إلى كوستاريكا، وفي هذا الصيف، وسوف أقود رحلة أخرى».

براد ناهيل هو مدير التسويق والمؤسس المشارك لمجموعة السلاحف البحرية، وهي المجموعة التي قاد زاندر رحلتها الأولى في مجال السياحة البيئية. سألته كيف تطورت طبيعة عمل زاندر لمصلحة المنظمة.

«أول اتصال بيني وبين زاندر كان في اجتماع سنة 2007م، في ندوة حول السلاحف البحرية عقدت في مدينة ميرتل بيتش في ولاية كارولينا الجنوبية، وقد لفت انتباهي إليه أحد زملائي، وهو الدكتور والاس نيكولز، أحد أشهر رواد حماية السلاحف اليوم. طلب الدكتور نيكولز من زاندر تقديم عرض تقديمي لكتابه، وما فعله في مجال حماية السلاحف البحرية لإحدى المجموعات المشاركة في الندوة خلال وقت الاستراحة. كان سنه حينذاك يراوح بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، وكان عليه أن يقف أمام مناصري حماية البيئة الذين كانوا يؤدون هذا العمل منذ مدة طويلة، لكنه كان متحدثًا مفوَّهًا. وقد وضع كتابًا عظيمًا حول هذا الموضوع، ومع أني اطلعت على كثير من الكتب والمقالات حول الموضوع، لكن كتابه كان من بين أفضل ما قرأت؛ فأنت لا ترى من حولك كثيرًا من الأولاد يتنقلون بين أروقة هذه الاجتماعات التي تتضمن عادة عروضًا تقديمية عالية المستوى على صعيد المضمون. لقد تأكدت من أنه سيكون له مستقبل باهر في هذا المضمار.

بقينا على تواصل معًا سنةً أو نحو ذلك، وفي الوقت الذي بدأ مشروع (شاهدوا السلحفاة) بتطوير برنامج تربوي أكثر تكثيفًا، شعرت أن من المهم معرفة منظور شخص شاب، وعرضتُ على زاندر منحة تدريبية منذ الصيف ما قبل الماضي. فقدَّم لنا مرئياته حول البرامج التي يمكن أن يفيد منها المدرسون، وهذه البرامج ساعدت بالتأكيد المدرسين على تحسين أدائهم. ساعدني زاندر أيضًا على وضع قائمة بيانات للنوادي البيئية في كل من الجامعة والمدرسة الثانوية، وتُعدُّ تلك القائمة مصدرًا قيِّمًا أسهم في جعل المدارس تنخرط أكثر في البرنامج.

قررنا أن نعدَّ رحلة إلى كوستاريكا لطلاب الجامعة بإشراف زاندر، فقد ساعد على الترويج لتلك الرحلة وتحديد مسارها. لم أكن متأكدًا من مسألة إشرافه على الرحلة بدايةً؛ فهو واحد من أكثر طلاب جيله في الجامعة ممن رأيت التزامًا وامتلاكًا للحافز؛ لكنه يبقى مع ذلك طالبًا

في الجامعة. لكنني كنت هناك، ورأيت كيف يتفاعل مع ستة طلاب، كان أغلبهم أكبر سنًّا من زاندر. وكانت مرئيات المشاركين بعد التجربة مذهلة؛ فقد كان كثير منهم يأملون في أن تتاح لهم فرصة الخروج في رحلة مشابهة يشرف عليها زاندر نفسه».

سألته: «ما الذي يجعل تأثيره فاعلًا إلى هذا الحد؟».

«هو مزيج من الكاريزما الشخصية وحماسة بلا حدود. عندما يكون في الجامعة وتكون هناك كثير من الأحداث تجري فيها، يكون حينها مترددًا وغير واثق بنفسه، وأما عندما يتجول على الشاطئ، فإنه يشعر أن ذلك المكان هو مجاله الحيوي، ويكون واثقًا جدًّا بنفسه. وهو لا يدَّعي أنه خبير، لكنه يعمل في هذا الحقل منذ مدة كافية، وله قاعدة معرفة قوية، إضافة إلى أنه يجيد توفير مناخ يجعل من وجوده بين هؤلاء الناس مصدر راحة. لقد أشرفت على عدة رحلات، وهناك دائمًا أطياف من الناس؛ بعضهم يكون مليئًا بالحماسة، في حين يشعر آخرون بالخوف، ولا يكونون يعرفون كثيرًا، ويتوجسون من احتمال فعل شيء خاطئ. إن لدى زاندر قدرة على مساعدتهم على تجاوز التردد الأولي، والشعور بالراحة، ويصبحون جزءًا من عمل بحثي، أو عمل ميداني يحافظ على هذه المخلوقات من الاندثار.

طالبٌ يعاني ومدارس لم تقدِّم أي مساعدة

لولا الدعم غير المحدود الذي قدمته ليندا سودركويست وجين سرودس، والدة زاندر، لكانت كثير من مواهب زاندر قد تلاشت من دون أن يلاحظها أو ينمِّيها أحد، ولكانت تلك التبرعات من أجل المحافظة على البيئة قد أخذت منحى آخر. وعلى عكس معظم المبدعين الشباب الذين التقيناهم وتفتحت مواهبهم في المدارس، فقد حقق زاندر تلك الإنجازات على الرغم من المشكلات التي كان يعانيها في مدرسته، وقد شرحت لي جين سترودس هذه النقطة في رسالة بعثتها إلي بالبريد الإلكتروني:

«لقد تلقَّى زاندر كثيرًا من الدعم في سعيه لتحقيق ما يصبو إليه؛ ولكن لا يمكنني البتة أن أقول إن النظام التربوي قدَّم له أي نوع من أنواع الدعم.

أقول دائمًا إن كل ما تعلَّمه كان في روضة الأطفال، إذ أخذته معلمته في روضة الأطفال، التي كانت أيضًا معلمته في الصف الأول الابتدائي، على عاتقها، وكانت دائمًا تردد القول إنها تعتقد أنه ليس كل الأولاد مصنوعين من قطعة القماش نفسها. كان بمقدورها أن تدع زاندر يعمل ما يريده، من دون مساعدة منها، وأن يتحرك في المكان بكل حرية، غير أنها سهَّلت له تقبُّلَ تلقي التعليم في المدرسة، ولكن كثيرًا من المدرسين بعد ذلك كانوا متشبثين بطريقة تدريسهم، حتى إنهم حولوا دفع زاندر في المدرسة إلى تجربة مؤلمة. عالَمُ العمل الورقي، والعمل المكتبي الذي لا ينتهي، والجلوس إلى طاولة المكتب بصمت، كل ذلك جعل من المدرسة تجربة صعبة بالنسبة إلى عائلتنا.

ربما كان علينا معالجته، وكنا نعرف أنه لو فُحص طبيًّا لتبين أنه مصاب باضطراب في القدرة على التركيز، ولكننا لم نشأ وأدَ روحه الإبداعية.

في المرحلة الثانوية، التي قضاها في مدرسة حكومية في مدينة إنجلوود في ولاية فلوريدا، لم يسترعِ ما كان يفعله للحفاظ على البيئة انتباه أو اهتمام أيٍّ من أساتذته، وفي تلك المرحلة خاصة بدأ يتلقى عديدًا من الجوائز، وفي الحفل النهائي لتوزيع الجوائز في المدرسة، عندما كان على أعتاب التخرج، نسوا أن يشيروا إلى أنه تلقى جائزة (مجتمع الروح الحصيفة)، ولم يردُّوا قط على الرسالة التي طلبت إليهم تسلُّم لوحة التقدير، وتسليمها له في الحفل.

التقى زاندر بليندا سودركويست عندما كان في سن الحادية عشرة، ولم يكن لديها شك بأنه سوف يسعى لترجمة رؤيته إلى عالم الواقع، حتى وهو في تلك السن الصغيرة. وكانت دائمًا تأخذه على محمل الجد، وتشجعه على السعي إلى تحقيق أحلامه، ولولا الرسومات الرائعة التي ضمَّنتها كتابيِّ النشاط اللذين كتبهما زاندر، لما كان لمشروعه أن يبصر النور. لم تطلب ليندا قط أن تتقاضى أي مبلغ لقاء ما قدَّمتْه له من رسومات فنية أو تتوقع شيئًا من هذا القبيل.

لذا لا أعرف كيف أجيب عن سؤال يتعلق بكون المدارس مكانًا ينمِّي ويشذِّب مواهب الطلاب المبدعين. لو كان الخيار لي، لعلَّمت زاندر في المنزل، لكنه في الحقيقة اختار أن يذهب إلى المدرسة لأسبابَ اجتماعية، إذ إنه لم يكن يتصور البقاء في المنزل في حين أن جميع الأولاد يذهبون إلى المدرسة. كنت أعتقد فعلًا أن المدرسة كانت عائقًا في وجه رغبته في التعلم.

أدرسه الآن بصفة معلمة بديلة في النظام التعليمي الحكومي في فرجينيا الغربية، وأنا ألاحظ هنا نوعية التعليم نفسها التي تلقاها ولدي؛ تعليم سطحي، ومثير للملل، ويتحكم المعلم فيه في كل شيء. قضيت شهرًا أدرِّس في إحدى المدارس الخاصة لطلاب مرحلة التعليم المتوسط، وقد تعاملت مع خمسة من الصبية المصنفين على أنهم مثيرون للشغب؛ ولكن لو توغلتَ قليلًا إلى ما تحت السطح، لوجدتَ أن لدى أولئك الخمسة بعض المواهب؛ فكل واحد منهم كانت لديه خطة تعلم خاصة به، وكل واحدة من تلك الخطط لها مواصفاتها الخاصة بها، ولكن ماذا لو توافرَ أحدٌ أطلق عنان الحماسة الموجودة في داخلهم، أو قدَّم لهم الدعم في تطوير ما لديهم من اهتمامات؟ حينها ما كان على أيٍّ منهم أن يضطرني إلى متابعته من صف إلى آخر كي أتأكد من أنهم لا يثيرون المتاعب. كان بإمكان كل واحد منهم أداء ما هو مطلوب منه؛ لكنهم كانوا جميعًا يمارسون كل ما رُسِمَ عنهم من صور نمطية. وقد انتقلت حاليًّا لتدريس الصف الأول، لكنني قلقة حقًّا على مصير أولئك الصبية في تلك المدرسة الإعدادية».

تقاعدت ليندا سودركويست من العمل في مجال التدريس سنة 2010م بعد أن مارست التدريس في المدارس الابتدائية لاثنتين وأربعين سنة. وكانت هي الأخرى متحدثة مفوَّهة، وصريحة جدًّا في الحديث عن معاناة طلاب مثل زاندر، وقد ذكرت أن «معظم المدارس لا تسمح لطلاب يعانون اضطرابًا في القدرة على التركيز، أو مشكلات سلوكية، بالالتحاق ببرامج مخصصة للموهوبين، في حين كانت قناعتي عكس ذلك تمامًا؛ فقد يكون هؤلاء الصبية أحيانًا من أكثر الأولاد إثارة للاهتمام، هم يعرفون أنني أريد لهم أن يخرجوا خارج قوقعة الصف ومتطلباته، فما يريده كثيرون من الطلاب الموهوبين يقتصر على معرفة (الجواب الصحيح)، ولكن معظم الأسئلة التي كنت أطرحها لم يكن هناك جواب صحيح محدد لها؛ كانت أسئلتي تستثير طلابًا مثل زاندر بحيث يقف ويذرع غرفة الصف جيئة وذهابًا، ويعود إلينا بجملة من الأفكار. كانت هناك دائمًا فكرة موجودة في رأسه؛ والصبية الموهوبون هم دائمًا على هذه الشاكلة. عديد من المدرسين يطلبون إلى الطلاب أن يبقوا جالسين في مقاعدهم بأدب، ولكنني أعتقد أن على المدرسين أن يفهموا أنه إذا كان هناك ولد مشاغب أو مزعج، فهذا لا يعني أنه ليس لديه ما يقدمه، ومن ثم فعلى المدرسين أن يفكروا بطريقة يستطيعون من خلالها استخراج ما لدى الطلاب من مقترحات أو أفكار.

أنا محظوظة لأنني تقاعدت من العمل، وفي آخر مدرسة درَّست فيها هذه السنة، إذا كان اليوم هو يوم الثلاثاء فيجب على جميع الطلاب أن يفتحوا كتبهم على الصفحة 21، ولكن كان الوضع أكثر مرونة عندما كنت أدرِّس الطلاب الموهوبين، ولذلك فقد كنت أنتقي من الوحدات الدراسية التي أدرِّسها أكثرها قربًا لفهم الطلاب، وأكثرها تكاملًا وتعددية في الحقول المعرفية، وكنت قبل أن أبدأ الدرس أشرح ما كنا بصدد شرحه ومناقشته، وكنت أذكِّرهم أيضًا بأن أرباب العمل يبحثون عن أشخاص لديهم أفكار إبداعية، وأن الجواب الصحيح ليس حاضرًا في الذهن دائمًا. أما الآن، فإذا لم يكن ما تدرسه يدخل ضمن الاختبار، فلن يسمح لك بتدريسه أو التطرق إليه. وقد يأتيك بعض مديري المدارس ويقولون لك: «لن ندرِّس مقرر العلوم في هذا الفصل الدراسي؛ لأن الاختبار في هذا المقرر لن يكون إلا لطلاب الصف الخامس. أعتقد أن مثل هذه السياسة تبعث على الخوف».

يطمح زاندر إلى أن يصبح عالمًا في البيولوجيا البحرية؛ ولكن بعد محاولتَين من قبله للالتحاق بجامعتين حكوميتين مختلفتين، فإنه ليس من الواضح بالنسبة إلي أنه سيكون بإمكانه الحصول على الدرجة الجامعية المرجوَّة؛ ففي المدرسة الثانوية استطاع زاندر تدبر أمره بقليل من الجهد، وقد قال لي زاندر: «أفضل شيء بالنسبة إلى طالب عادي مثلي في مدرسة ثانوية عادية، كان تملُّصي من حضور بعض الدروس لأقدِّم عروضًا تقديمية في أي وقت أشاء، ولم يكن أحد يهتم لذلك البتة. كنت دائمًا أعطي الأولوية لعملي في مجال المحافظة على البيئة، وذلك على حساب حصصي الدراسية في المدرسة. كان لدي أصدقاء في صفوف متقدمة، ويدرسون للحصول على شهادات بكالوريا عالمية؛ لكن لم يكن بإمكان أي منهم فعل ما أفعله»، لكن الجامعة شيء مختلف تمامًا؛ فقد قال لي بلغة تشوبها مسحة من مزاح: «أنا بحاجة إلى شخص يمنحني شهادة فخرية، لقد كانت المدرسة العقبة الكأداء الأكثر صعوبة في حياتي؛ فهي عقبة أمام كل ما أرغب في تحقيقه أو الحصول عليه. أكره أن أكون في الصفوف الدراسية، وأدائي جيد في الحصص الدراسية التي تستهويني مادتها العلمية، والتي أشعر بمودة تجاه الأستاذ الذي يدرسها، ولكن إذا لم تتوافر هذه العوامل، فإن من شبه المستحيل بالنسبة إلي أن أجرَّ نفسي خارج السرير».

سألتُ جين سرودس عن رؤيتها لمستقبل زاندر.

قالت: «في وقت ما سوف ينهي دراسته الجامعية، فأنا لست قلقة عليه من هذه الناحية؛ فباستطاعتك دائمًا العودة إلى الدراسة، ولكن هل بإمكانك دومًا أن تعثر على الحماسة في داخلك؟ ترك زاندر الدراسة للذهاب إلى بنما شهرًا عندما كان في سن السابعة عشرة. قال لي كثيرون حينها «لا نصدق أنك سمحت له بفعل ذلك»، لكنني شعرت بأن من الظلم ألا أدعه يذهب إلى هناك. ربما كان عليَّ أن أشعر بالقلق، لكنني أراه يحيا حيث يعتقد أنه يجد نفسه؛ وأعتقد أن هذا الأسلوب ناجح».

«ما شعور زوجك حيال ما يفعله زاندر».

«إنه فخور جدًّا به، لكن من الصعب على زوجي، الذي يبلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة، قبول ذلك؛ لأنه يتوقع أنك إذا أنجزت عملًا ما، فيجب أن يكون لقاء مال تكسبه، على الرغم من أن زاندر يظن أن المنح التدريبية غير المأجورة التي التحق بها هي (وظيفة) بالنسبة إليه».

أخطار النعوت وتحدي الشهادات

نشاهد مرة أخرى نموذجًا أضحى الآن مألوفًا في عملية التطور التي يمر بها المبدع الشاب: فنحن نصادف أولياء أمور يشجعون أولادهم على تلمس مواطن حماستهم الداخلية، والعثور على أستاذ من خارج الحلقة الدراسية -في مثل هذه الحال، أستاذة تدرِّس في المرحلة الابتدائية- يمكن أن يمد طلابه بشحنة من القوة تساعدهم في عمليتيِ الاستقصاء والاكتشاف داخل الصف، ويفعل الشيء نفسه بصفة مشرف خارج المدرسة.

كانت العروض التقديمية التي قدمها زاندر في سن الحادية عشرة أشبه ما تكون -بدايةً- بلهوٍ إبداعي بدأ يتحول بسرعة إلى نوع من أنواع الشغف والحماسة، وتحول شغفه وحماسته في مرحلة لاحقة إلى هدف يسعى بسرعة إلى تحقيقه، ولكن من غير الواضح كيف سيكتسب زاندر المصداقية التي يحتاجها في سعيه إلى تحقيق هدفه المنشود في المستقبل؛ فنحن نعيش في مجتمع يقدس الشهادات، خصوصًا في أوساط المتخصصين في مجالات العلوم. قارَنَ براد ناهل، المشرف على زاندر، الصراعَ الذي خاضه هو من أجل نيل مثل تلك المصداقية بالصراع الذي خاضه زاندر؛ «لكوني أحمل شهادة جامعية في الاقتصاد وليس في علم البيولوجيا، وجدت صعوبة كبرى في أن ينظر إلي بعين الجد من قبل حملة الشهادة الجامعية في العلوم، أما أن

يكون المرء بلا شهادة على الإطلاق، فسيشكل ذلك تحديًا كبيرًا له. ربما يستطيع زاندر أن يحصل على مثل تلك الشهادة، لكن الأمر سيكون أصعب بكثير».

هناك العديد من الناس الذين يشبهون زاندر؛ خصوصًا في أوساط السكان الفقراء اقتصاديًّا؛ فالنعوت التي تطلق عليهم - مثل فرط النشاط، أو معاناة الاضطراب، وعدم القدرة على التركيز، أو أن يكونوا من ذوي الاحتياجات الخاصة، وغير ذلك - يمكن أن توصِّفَ بعض الأعراض التي يعانونها؛ ولكن في أغلب الأحيان تصبح هذه (التشخيصات المَرَضيَّة) بمنزلة الندبة التي لا يزول أثرها، وتتحول إلى وصمة عار تلطخ أرواح الأولاد، ولا تُنبِئُنا بأي شيء عن حقيقة شخصياتهم، وما يمكنهم فعله، وما الذي يحتاجون إليه من أجل تحقيق النجاح، لكن القاسم المشترك بين كثيرين ممن علمتهم هو أن أيًّا منهم لم يكن التعلم الذي حصل عليه قد أتى من خلال الكتاب؛ فهم يتعلمون من خلال الممارسة، وهم قادرون على تقديم مساهمات هائلة للمجتمع لو أعطوا الفرص الصحيحة للتعلم والتطور، كما تبين لنا في حالة زاندر.

إيمي سميث، التي كانت مدرِّسة جودي وو في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، تفهم المشكلة من زاوية شخصية جدًّا، قالت لي: «أنا متأكدة من أنني لو كنت الآن طالبة لشُخِّصت حالتي بوصفي شخصًا يعاني الاضطراب وعدم القدرة على التركيز. هناك عدد كبير من الناس يعتقدون أنهم يعانون مثل هذا الاضطراب، مقابل شريحة صغيرة أخرى لا تشاطرهم هذا الرأي. هؤلاء يخضعون لمعالجة دوائية؛ لأن من الصعب ضبطهم أو السيطرة عليهم، أو لأن من الأصعب أن تطالبهم بوظائف منزلية أو ما شابه. كنت خجولة؛ ولذا فلم أكن أقع في كثير من المشكلات، لكنني لا أستطيع أن أتعلم من خلال القراءة، فأنا غير قادرة على الاحتفاظ بالمعلومات، ولا تدخل الكلمات المطبوعة على صفحات الكتاب إلى دماغي إلا إذا تخيلت أو لمست حقيقة ما أقرؤه، لكن الأشخاص الذين يمتهنون التعليم، يتعلمون هم بطريقة خاصة، خصوصًا أن مجال التعليم يقوم بالأساس على القراءة، أما أساليب التفكير الإبداعية والمتنوعة فتهمَّش في المدارس؛ ولذا فإن أولئك الصبية لا ينتهي بهم المطاف في وظائفَ تتيح لتلك الموهبة الإبداعية أن تُرعى حق رعايتها».

لا أعرف ما الحل بالنسبة إلى زاندر، أو كيف ستكون نهاية قصته؛ ولا أعتقد أن على جميع الطلاب أن يلتحقوا بالجامعة للحصول على شهادة جامعية بعد أربع سنوات. وكما قالت إيمي، نحن بحاجة إلى معرفة قيمة كل نوع من أنواع الموهبة الإبداعية، والطرائق العديدة التي يستطيع

بعضهم أن يكونوا من خلالها مبدعين من دون الحاجة إلى قضاء أربع سنوات في الجامعة، ففي فنلندا التي تُعدُّ واحدة من أكثر دول العالم إبداعًا، يختار أكثر من نصف عدد الطلاب فيها مهنًا أكثر عملية، ويلتحقون ببرامج موجهة نحو التخصصات المهنية؛ وبعد تخرجهم في المدارس الثانوية مباشرة يحصلون على عروض للالتحاق بوظائف ذات طابع إبداعي، وتدرُّ عليهم مالًا وفيرًا. وسوف نستعرض بعضًا من إبداعاتهم التربوية في الفصل الآتي.

ملاحظات ختامية

لا يواجه المبدعون الاجتماعيون جميعًا مشكلات عصيَّة كالتي عاناها زاندر وسيريتا، وعديد من أكثر الطلاب امتلاكًا للموهبة الذين التقيت بهم في معرض هذا البحث، يتوقون إلى أن يصبحوا روادًا اجتماعيين، وهم طلاب ممتازون، ولورا وايت هي مثال على ذلك. وبغض النظر عن بيئاتهم الاجتماعية والاقتصادية، أو درجة نجاحهم في المدرسة، فما كان يجمع بين كل أولئك المبدعين هو أهمية اللعب والشغف والهدف في حياتهم. هذه الحوافز الداخلية هي ما يدفعهم لإنجاز ما يهدفون إلى تحقيقه، وإلى المثابرة في سبيل ذلك، وهي التي تعطي حياتهم قيمة ومعنى. في أثناء الأحاديث الكثيرة التي أجريتها مع الشباب من أجل إعداد هذا الكتاب، لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة تشير إلى أن هدفهم كان جمع المال أو اكتساب الشهرة، فهم يريدون أن يحدثوا فرقًا إيجابيًّا، وهم أيضًا بحاجة إلى تحقيق ذلك، وبالتأكيد فهم يريدون أن يحصلوا على شيء من التقدير والاعتراف بالجهود التي يبذلونها، وهذا جزء من الطبيعة البشرية.

لكن الشغف والهدف هما أكثر أهمية بالنسبة إلى الشباب من ذوي البيئات الفقيرة، والذين يناضلون ضد الفقر والتمييز، فبالنسبة إلى هذه المجموعة، فإن وجود إحساس قوي بالشغف والهدف هو ما يساعدهم على اكتساب الجرأة المطلوبة، والانضباط، والتماسك، للارتقاء فوق أوضاعهم، وكل ما حولهم، وامتلاك الأمل، واكتشاف طريقهم الصحيحة نحو المستقبل. وقد كان للمشرفين دور حاسم في رعاية حماسة أولئك الشباب وضبط أهدافهم، خصوصًا أولئك الذين جاؤوا من بيئات فقيرة، كما رأينا. تخيلوا عدد المشرفين الذين ساعدوا سيريتا وجامين بطرائق فعالة، ليس على أيٍّ منكم أن يكون أبًا أو أمًّا أو معلمًا كي يحدث هذا الفرق الهائل في

حياة شخص شاب، ولكن ما عليكم فعله هو أن تنتبهوا جيدًا لهذه الشرارة المهمة من الحماسة، وتقوموا على رعايتها.

بعض الشباب المبدعين الذين التقيناهم كان أداؤهم في المدرسة جيدًا، في حين لم يكن آخرون كذلك، ولكن حتى أولئك الذين حققوا نجاحًا باهرًا في المدرسة، استفادوا كثيرًا من مدرس أو اثنين فقط، وجميع هؤلاء المدرسين الذين وقفوا إلى جانب طلابهم المبدعين تحدَّوا أنظمة مدرستهم أو جامعتهم وتقاليدها بطريقة أو بأخرى. أما الشبكات غير الربحية، وغير الرسمية، التي انخرط مبدعونا الشباب في العمل معها، فكانت لا تقل أهمية في عملية تطورهم عن الخبرة التي اكتسبوها من أي مدرسة ثانوية أو جامعة انتسبوا إليها أو تخرجوا فيها.

لحسن الحظ، هناك مربُّون شجعان في كل مكان؛ وهم منهمكون في بحوثهم وتطوير أنفسهم من أجل الخروج بأساليب تعليم إبداعية على كل المستويات التعليمية؛ بدءًا من مرحلة ما قبل الروضة وحتى سن السادسة عشرة، وقد سبق لنا لقاء عدد من هؤلاء المدرسين من خلال القصص التي عرضناها لثمانية من المبدعين الشباب في هذا الكتاب. وفي الفصل الآتي سوف نستقصي بعمق أكبر، أنواع التغييرات التي حدثت في القطاع التربوي، والتي يحتاجها مجتمعنا أمسَّ الحاجة من أجل (صناعة) أعداد أكبر من الشباب الفضوليين والمبدعين والملتزمين بإحداث فرق جوهري في حياتنا.